

شريف شوقي

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

هذه السلسلة ..

عندما تتحوَّل حياة الفرد منا إلى صحراء جرداء ..
وعندما تجف مشاعرنا وتستحيل إلى أغصان يابسة ..
يتوق قلب كل منا إلى الحبِّ .. الحبِّ الذى يروى هذه المشاعر .
فيعيد إلى أوراقها الخضرة .. ويبدل صحراءها إلى بساتين مزهرة ، ورياض غناء .

إنه الحب .. الحب بمعناه الرحب : حب الحبيب .. حب الابن .. حب الأب .. حب الأم .. حب الوطن .. حب البشر ..

هذه الكلمة السحرية التى تذيب أحجار القلوب .. وتنبت الزهور اليانعة فى صخور المشاعر الصلدة ..

إنها الزهور التى ينشدها كل منا فى لحظات اليأس .. وفى لحظات الغضب.. وفى لحظات الكراهية.. وفى لحظات الجفاف.. فتشيع عبيرها الفوَّاح في ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملوّه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

١ ـ صراع مع النفس ..

وقف الرجل العجوز أمام مكتب الطبيب ، وهو يحاول أن يبدو متماسكًا ، ومحتفظًا بملامح وجهه الصلبة على الرغم من لهفته وتوتره الداخلى ، وتطلع إليه الطبيب مبتسمًا ، وهو يقول :

ـ الآن أستطيع أن أطمئنك .. لقد شفى ابنك تمامًا ..

أطلق الرجل زفرة قصيرة ، قائلًا :

ـ حمدًا لله .. أستطيع إذن أن أصحبه معى إلى المنزل الآن ؟

مطَّ الطبيب شفتيه ، وهو يفكر قليلًا ، ثم قال :

ـ نعم .. تستطيع ذلك بالفعل ، ولكن مع شىء من الملاحظة والرقابة ، فلا أريد له أن يعود إلى هذه المصحة مرة أخرى .

قال له الأب :

ـ سأفعل كل ما فى وسعى ؛ للحيلولة دون ذلك .

نهض الطبيب .. من وراء مكتبه ، قائلًا وهو يقترب من الأب :

ـ هناك شىء آخر .. أعتقد أن (مجدى) سيكون بحاجة إلى جو مريح ، بعيدًا عن التوتر والقلق .. جو

يعيد إليه حيويته ونشاطه ، بعد اجتيازه هذه الأزمة ، وليتك تستطيع أن توفر له مثل هذا المناخ ، فهو فى حاجة ماسة إليه .

الأب :

- إننى أمتلك عزبة صغيرة فى (الشرقية) .. ما رأيك لو سافر إلى هناك ، لقضاء عدة أيام ، يسترد خلالها هدوءه النفسى والصحى ؟

الطبيب :

- عظيم .. وليتك تجعلها عدة أسابيع .

الأب :

- ولكنى لا أستطيع أن أترك أعمالى ومصالحى فى (القاهرة) ، للبقاء معه هناك ، وأنت تقول : إنه سيكون بحاجة إلى بعض الرقابة والملاحظة ، خلال الفترة القادمة .

الطبيب :

- ليس ضروريًا أن تكون أنت بالذات إلى جواره هناك .. يكفى أن يكون معه شخص ما ، يكون موضع ثقة بالنسبة لك وله .

الأب :

- سأبذل كل ما بوسعى ..

ووقف الأب إلى جوار السرير ، الذى يرقد عليه ابنه

نائمًا فى سكون تام ، وقاوم عبرة كادت تنحدر من عينيه ، وهو يتأمل ملامح ابنه الراقد فى الفراش ، فقد كان من الصعب عليه أن يصدق أن ذلك الشاب ، الذى اكتسى وجهه بالشحوب ، وبدت عليه ملامح الإرهاق الشديد ، هو (مجدى) المفعم بالنشاط والحيوية ، والذى كان محط الإعجاب ، بالنسبة للكثيرين ، منذ عام واحد فقط ، قبل أن يسقط فريسة للإدمان .

لقد تخرج (مجدى) من كلية الهندسة منذ عامين بتفوق كبير ، كدأبه طوال سنوات عمره الدراسية ، فهو متفوّق دائمًا ، ويتمتع بعقلية متقدة الذكاء ، جعلته يحرز أعلى الدرجات ، ويحتل أحد المراكز الأولى بصفة مستمرة ، طوال أعوام الدراسة ، حتى انه كان يلقب بالنابغة ، ولم يكن متفوقًا فى دراسته فحسب ، ولكنه كان متفوّقًا فى النشاط الرياضى أيضًا ، حتى أنه أحرز عددًا من البطولات ، على مستوى الجمهورية ، فى الغطس والسباحة .. أضف إلى هذا ثراء أبيه ، وملامحه الرجولية الوسيمة ، التى جعلته موضع إعجاب ومطاردة العديد من الفتيات ، وملاحقتهن الدائمة له ..

كل هذا كان ينبئ بمستقبل باهر ، وبشخصية ناجحة ، تتوافر لها كل مقومات الثقة بالنفس والطموح .

وعلى الرغم من أن (عبد الحميد قنديل) لم ينجب من

الأبناء سوى (مجدى) ، الذى تركته زوجته يتحمل عبء
رعايته وتربيته وحده ، وهو ما يزال بعد فى السادسة من
عمره ، إلا أن الأب أحس منذ الوهلة الأولى ، أن الله قد
عوضه بهذا الابن عن أسرة كاملة .

لقد كان هذا الابن بالنسبة له هو ثروته الحقيقية ،
وموضع طموحاته وآماله ؛ لذا .. فقد رفض أن يتزوج بعد
وفاة زوجته ، وتفرغ لتربيته وتنشئته ، على النحو الذى
يمكن أن يحوّل هذه الطموحات إلى حقائق .

وفى الواقع فإنه لم يكن فى حاجة إلى بذل جهد كبير ،
من أجل القيام بهذه المهمة ؛ إذ كان الإبن متجاوبًا مع أبيه
دائمًا فى آماله وطموحاته ، وعلى الرغم من أن
(عبد الحميد قنديل) كان يبدو فى مظهره الخارجى شديد
المراس ، إلا أنه كان فى حقيقته أبًا حنونًا ، شديد الحب
لابنه ، ولكنه ذلك النوع من الحب الذى يحرص فيه الأب
على أن يجعل من الابن امتدادًا له ، ولأسلوبه فى الحياة ..

وكانت هذه هى نقطة الخلاف الحقيقية ، بين (مجدى)
وأبيه ..

فقد كان (مجدى) مقبلًا على الحياة ، بكل الثقة
والتفاؤل ، على عكس الأب ، الذى كان ينظر إلى الحياة
نظرته إلى امرأة مخادعة ، لا يمكن أن يأمن المرء شرها ؛
لذا كان يرى أنه يتعين على الشخص أن يكون حذرًا دائمًا

من تقلباتها ، مستعدًا للتعامل معها بكل قسوة وصلابة ، أما
(مجدى) فعلى الرغم من جديته وتفوقه ، فقد كان مرحًا
متواضعًا ، فى تعامله مع الحياة والآخرين ، فى حين بقى
الأب محتفظًا بتلك الصورة المتجهمة ، لشخص لا يسهل
التعامل معه ، شديد الجدية والواقعية فى تعامله مع الحياة
والآخرين . وإن بقى فى أعماقه بعيدًا بعض الشىء عن
تلك الصورة ، التى رسمها لنفسه ، وانطبعت بها
شخصيته ..

وكان (مجدى) يعرف مقدار حب أبيه له ، ولكنه وجد
دائمًا صعوبة بالغة فى استخراج هذا الحب ، ولمسه عن
قرب ، إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا ، بقى محتفظًا بحبه
الشديد لأبيه ، حريصًا على استرضائه ، وتحقيق
ما تمناه له .

كان فى تفوقه ونبوغه يشعر أنه يسعى وراء هذا
النبوغ ، لا من أجل ذاته فقط ، ولكن أيضًا من أجل تحقيق
ما تمناه له أبوه فى الحياة ، وكان يستكمل سعادته بهذا
التفوق ، عندما يحصل على تلك الابتسامة الراضية من
أبيه ، فلم ينس لأبيه أبدًا تضحيته من أجله ، وهو الرجل
الواسع الثراء ، الذى حرم نفسه من الزواج ، وهو فى
عنفوان رجولته ، من أجل تربيته ورعايته ، وخوفًا من أن
تشغله زوجة ثانية عنه ، أو تقف مثل هذه الزوجة عقبة

أمام مستقبل الابن .

لذا فقد كانت الصدمة شديدة على (عبد الحميد قنديل) ، عندما عرف ذات يوم أن ابنه ، الذى كان يفاخر به دائمًا ، قد سقط فى مستنقع الإدمان ، وأصبح فريسة لمروجى الهيروين ، كما كان من المستغرب ، بالنسبة لشاب مثل (مجدى) ، أن يقدم على شىء كهذا ، وأن يصبح مدمنًا .

لقد حدث هذا منذ ثمانية أشهر على وجه التحديد ، ومن الغريب أنه حدث دون سبب واضح أو محدود .

كل ما هنالك أن (مجدى) أراد أن يتمرد على تلك الحياة ، التى رسم له أبوه خطوطها بدقة ، والتزم دائمًا بالسير على نهجها .

لقد أحس ذات يوم أنه تحول إلى شخص مبرمج ، عليه أن يتبع دائمًا الخطة المحكمة ، التى حددها له الأب منذ البداية ، والتى لم يعارضها يومًا ، بل التزم بكل حرفياتها ، وأصبحت هى ذاتها منهجه ، فعليه أن يكون متفوقًا دائمًا فى دراسته ، بل وألا يخرج فى تفوقه عن أحد المراكز الثلاثة الأولى ، فى سنواته الدراسية ، وإلا وقعت الكارثة كما صور له الأب ، ثم عليه بعد أن ينهى دراسته فى (القاهرة) استكمالها بدراسة أخرى أكثر تقدمًا فى الخارج ، ليعود بعدها مهندسًا مرموقًا ، فى مجال

الإكترونيات ، كما اختار له الأب أيضًا ، منذ سنوات حياته الأولى ..

وأصبح طموح الأب هو نفس طموح الابن ، وسعى كل منهما لتحقيق ذات الهدف ، الذى حدده له الأب منذ البداية ، ولم يكن هذا هو الأمر الوحيد ، الذى يتعين على (مجدى) أن يلزم نفسه به ، تبعًا لاختيار أبيه وإرادته ، بل أصبحت هناك أشياء أخرى يتبعها فى حياته ، كما لو كان شخصًا مبرمجًا ، مثل ساعات النوم ، وساعات الخروج ، وطريقة اختيار الأصدقاء والملابس ، وأسلوب التعامل مع الآخرين .

حتى زوجة المستقبل ، كان الأب قد استقر على وضع مواصفات خاصة بها ، بالنسبة لابنه ، ووفقًا لشروطه هو .. تلك الشروط التى وُضعت وحُددت قبل أن تظهر حتى ملامح هذه الزوجة ، ودون أدنى اعتبار لمشاعر الابن وحقه فى الاختيار ، وترك أحاسيسه تتجاوب مع من اختارها .

وبالرغم من أنه لم يظهر أبدًا على السطح تعارض حقيقى بين رغبات الأب والابن ، ربما بدافع من حب (مجدى) لأبيه وتقديره له ، إلا أن كل هذا كان قد أصبح ثقيلًا للغاية على نفسه .

كان بحاجة إلى شىء من التمرد ، على هذه الخطة

الإلزامية ، التى وضعت له منذ مراحل طفولته الأولى ، فلجأ بداية إلى اللهو البرىء ، وقضاء بعض السهرات مع أصدقاء له خارج المنزل ، ولساعات متأخرة من الليل ، ولم يتقبل منه الأب هذا ، فثار عليه فى قسوة ، مطالبًا إيَّاه بالتوقف عن تلك السهرات خارج المنزل ، وعدم تجاوز الساعات المحدودة له فى مصاحبة الأصدقاء ، والجلوس معهم فى النادى .

وكانت هذه هى نقطة الصدام بين الأب والابن .

ربما رضخ (مجدى) ظاهريًا لما أمره به أبوه ، إلا أنه من الداخل رفض هذا ، ونمت بذرة التمرد فى أعماقه ، فهو لم يعد طفلًا صغيرًا يتعين عليه الالتزام بما حدَّده له والده بدقة .. لقد كبر ، وانتهى من دراسته ، وهو فى سبيله للسفر إلى الخارج ، لكى يدرس الإلكترونيات ، ويعود مهندسًا مرموقًا فى هذا المجال ، أى أنه أصبح رجلًا ناضجًا ينتظره مستقبل باهر الآن ، فإلى متى سيرضخ لهذه المعاملة من جانب أبيه ؟.. إلى متى سيعامل كطفل صغير ، أو كإنسان مبرمج ، تحدَّد له ساعات النوم والخروج واللهو ، ويلتزم بتنفيذ خطة رسمت له منذ الصبا ، ويتعين عليه ألا يحيد عنها ؟.. كيف وهو الرجل المتعلم ، الذى يضع أقدامه على أعتاب الحياة العملية ، قد مرت عليه كل

هذه السنوات ، دون أن تكون له خبرة حقيقية بشئون الحياة وتجاربها ؟ ، فشخصيته رسمت له وفقًا لما حدَّده أبوه ، ولم تتح له الفرصة لكى يشكل لنفسه هذه الشخصية ، ويتعامل مع الحياة بكل معطياتها وتجاربها الحلوة والمرة .

كل ماهنالك أنه تقبل ما حُدِّد له ، ورضخ ، وتأقلم معه .

لقد أخذت هذه التساؤلات تدور فى نفسه ، لتذكى فيها رغبته فى التمرد ، ومخالفة ذلك النمط الذى سار عليه طوال حياته ، وزاد أصدقاؤه فى تضخيم هذا الإحساس ، بسخريتهم منه لجهله بشئون الحياة ، وقلة خبرته وتجاربه الشخصية ، وخاصة كلما قال :

ـ « والدى قال كذا ، وأن له رأيًا فى هذه المسألة كذا ، وأن والده منعه من فعل كذا ، وطلب منه أن يفعل كذا » ، حتى أنهم كانوا يتهكمون عليه دائمًا قائلين : إنه ابن أبيه ، وإنه يتعين عليه قبل أن يتناول كوبًا من الماء أن يعرف أولًا ما إذا كان أبوه يوافق على ذلك أم لا ..

وتطوَّر الأمر بينه وبين أحد أصدقائه إلى حد العراك ، عندما طالبه بأن يكون رجلًا حقيقيًا وأن يتوقف عن التعلق بذيل أبيه ، فى كل أمور حياته على هذا النحو ..

وعندما اضطر والده للسفر لعدة أسابيع إلى الخارج ،

لأمور تتعلق بعمله ، بدأ هذا التمرد يعلن عن نفسه فى تصرفات (مجدى) وأفعاله على الرغم من تعارض هذه التصرفات والأفعال مع طبيعته ، وحقيقة جوهره ، فانتهز فرصة سفر والده إلى الخارج ، وانطلق يسهر مع أصدقائه لساعات متأخرة من الليل ، وتعمد أن يفعل كل ما امتنع عن فعله طوال سنوات حياته ، وكأنه يريد أن يثبت لنفسه ولأصدقائه .. أنه يستطيع أن يخرج عن الدائرة ، التى رسمها له أبوه ، وكأنه أيضًا يريد أن ينفث طاقة الكبت الموجودة داخله منذ الطفولة ..

وتعرّف أصدقاء جددًا ، وأماكن لهو لم يرتدها من قبل ، ونوعية من النساء والفتيات لم يلتق بمثلهن طوال حياته ، على الرغم من أنه كان محط إعجاب الكثير من الفتيات الأخريات ، لتفوقه الدراسى ، ونبوغه الرياضى ، ووسامته الرجولية ، إلا أن تلك النوعية التى عرّفه إياها أصدقاؤه ، كانت مختلفة كثيرًا عن فتيات النادى والجامعة ، اللاتى أحطن به ، واللاتى تعمد أن تبقى علاقته بهن محدودة وفقًا لإرادة الأب أيضًا ..

وأخيرًا قاده أصدقاء السوء ، الذين التفوا حوله فى هذه الفترة ، إلى أسوأ الرذائل التى يمكن أن يقاد إليها إنسان .

إلى المخدرات ..

وكانت هذه السهرة السوداء فى منزل أحدهم هى البداية ..

البداية لسقوط (مجدى) فى شرك الإدمان ..

كانت دعوة للتجربة ، وعلى الرغم من أن تمرده كان يدفعه ويغريه دائمًا بالإقدام على كل تجربة جديدة ، لم يعرفها فى حياته من قبل ، إلا أنه كان متخوّفًا من خوض هذه التجربة بالذات ، ولكن سخرية أصدقائه منه ومن تخوفه ، دفعته إلى الإقدام على هذه التجربة السوداء ، فبدأ يقلدهم ، ومارس معهم شم الهيروين ..

ومنذ تلك الليلة ، أصبح عبدًا لهذا الداء اللعين ..

لم تعد المسألة مسألة تمرد ، ولا تجارب جديدة ، ولا محاولة الإفصاح عن شخصية مختلفة .. لقد انتهى كل هذا بالنسبة له ، فلم يعد يهمه فى كثير أو قليل إثبات تمرده ، ولم تعد لديه رغبة فى البحث عن تجارب جديدة، لم يعرفها من قبل فى حياته .. لقد توقف عند هذه التجربة ، وأصبح أسيرًا لها ، ومستعدًا لفعل أى شىء من أجل الاستمرار فيها .

أصبح عبدًا للمخدرات والهيروين ، وسلبته هذه الرذيلة كل ملامح التفوق ، التى كان يباهى بها .

سلبته حتى إرادته ، فأصبح مستعدًا لفعل أى شىء ، حتى السرقة ، من أجل ممارسة هذه الرذيلة .

وعندما عاد والده من الخارج ، لم ينتبه إلى هذا الأمر فى البداية ، ولكن سرعان مابرزت له الصورة الأليمة بوضوح ؛ فلم يعد هذا هو (مجدى) ابنه الذى يعرفه ، بل أصبح شبحًا له .. وحاول أن يستشف حقيقة الأمر منه فى البداية فلم يفلح ، وعلى الرغم من قسوته الظاهرية ، وصلابته وشدته المعروفتين عنه ، واللذين لجأ إليهما لكشف السرّ وراء التغير الملحوظ ، الذى اعترى ابنه ، إلا أنه فشل فى ذلك تمامًا ، وكان هذا هو فشله الأول معه ..

وجاءت الكارثة عندما كشف أن ابنه ، الذى أخضعه طوال حياته لخطة مُثلى ، تكفل له التفوق والنبوغ ، وتهيئ له مستقبلًا مرموقًا ، يقوم بسرقته .. وفى تلك الليلة تكشفَت الحقّيقة ، وانهار (عبد الحميد قنديل) لأول مرة فى حياته ، عندما عرف أن ابنه أصبح مدمنًا للمخدرات ، لم تكن صدمته فى تلك الليلة بسبب معرفته لهذه الحقيقة المريرة فقط ، ولكن لكشفه أن البنيان ، الذى شيده طوال هذه السنين وضحى من أجل بنائه ، والذى تصوره قويًا صلبًا ، قادرًا على الصمود أمام كل المغريات ، وكل رياح الشر التى قد تأتى بها الحياة ، كان هشًا .. ضعيفًا منهارًا من الداخل .

إن ابنه ، الذى كان يعده للسفر إلى (ألمانيا) بعد عدة أسابيع ، لكى يكمل المرحلة الأخيرة من دراسته العلمية ، ويعود إليه مهندسًا متفوقًا كدأبه دائمًا فى الإلكترونيات ، والذى ظن أنه يستطيع أن يبعث به للسفر إلى (ألمانيا) ، مطمئنًا إلى صموده لكل مغريات الحياة هناك ؛ لأنه أحسن تربيته وصقله ، لم يستطع أن يصمد هنا لرذيلة معروفة عواقبها جيدًا ..

وأصبح على (عبد الحميد قنديل) أن يتغلب على الصدمة ، ويواجه الأزمة بشكل واقعى ، وأن يصلح البناء الذى شيده ، وهو أمر كان بحاجة لإرادة (عبد الحميد) الحديدية ، كما أنه بحاجة لإرادة مماثلة ، كتلك التى زرعها فى نفس ابنه .. تلك الإرادة التى قهرها المخدر ، والتى يتعين شحذها من جديد ، و (مجدى) بحاجة إلى علاج ، والعلاج فى مثل هذه الحالة لا يكفيه الذهاب إلى المصحات المخصصة لمن سقطوا فى بئر الإدمان ، وإنما يحتاج أيضًا إلى إرادة حقيقية وحديدية ، للتخلص من الإدمان ، وعدم العودة إليه مرة أخرى .

وكانت لدى (مجدى) الرغبة الحقيقية فى العلاج ، ولكن كانت تنقصه الإرادة ، بعد أن سلبها الهيروين منه .

وهكذا دخل الأب والابن فى صراع طويل وقاس ، مع

هذا الداء اللعين ، وحاول (مجدى) الهروب أكثر من مرة من المصحة ، لولا الرقابة الصارمة ، وإصرار الأب وتصديه .. تلك المصحة التى استمر فيها عدة شهور ، كاد فى أحدها أن ينتحر ، لعجزه عن مقاومة تأثير المخدر .. إلى أن تمكن بمساعدة الأطباء ورعاية الأب من الانتصار عليه أخيرًا ..

وعندما أخبر الطبيب (عبد الحميد قنديل) أن الشفاء قد تحقق بصورة تامة لـ (مجدى) ، وأنه يمكنه مغادرة المصحة الآن ، بدا له هذا وكأنه نهاية رحلة طويلة ، شاقة ، قاسية ؛ لذا فقد تنفس الصعداء ، وهو يستمع إلى ذلك القول من الطبيب ، واغرورقت عيناه بالعبرات ..

لقد استرد بناءه ، الذى شيده سليمًا مرة أخرى ، بعد أن رآه يتهدم أمامه ، ولكن عليه أن يعرف أن هذا ليس نهاية الأمر ، فعليه ألا يدع البناء ينهار مرة أخرى .. يجب أن يحرص على ألا يتكرر ما حدث ، برغم انه حتى هذه اللحظة لا يعرف كيف حدث ، وبرغم تصوره أن كل شىء كان يسير فى إعداده لهذا الشاب على أحسن مايكون ..

هل حدث ذلك نتيجة لتقصير فى الرعاية والعناية والرقابة ، أم أنه كان نتيجة للإفراط فى كل ذلك ؟

على كل حال .. المهم الآن هو ألا يسمح بتكرار

الأمر .. إنه لن يأخذ ابنه بالشدة ، فذلك قد يأتى بنتيجة عكسية .. عليه أن يكون متفهمًا ، برغم غضبه منه ، لما ألحقه بنفسه وبه ، وعليه فى نفس الوقت أن يبحث عن أسلوب جديد ، يتيح له مرة أخرى رعايته وإعداده للطريق الذى رسمه له منذ البداية ، كما عليه أن يرعاه صحيًا ، بعد أن سلبه المخدر ، ومقاومته له ، وكل تلك الأشهر التى قضاها فى العلاج ، الكثير من صحته وحيويته المعهودة ..

ونظر (عبد الحميد قنديل) إلى ابنه وهو يفتح عينيه فى إعياء شديد ناظرًا إليه ، تلك النظرة الغريبة التى لم يفهمها ، منذ أن أدخله للعلاج فى هذه المصحة ، والتى ظل يتساءل عما إذا كانت تحمل إليه شيئًا من العتاب أو الاعتذار ..

قال (مجدى) بصوت واهن :

ـ هل تقف هنا منذ فترة طويلة يا أبى ؟

رسم الأب ابتسامة على وجهه ، وهو يقول :

ـ خمس دقائق فقط .

(مجدى) :

ـ ولماذا لم توقظنى ؟

الأب :

ـ ظننت أنك بحاجة إلى المزيد من النوم والراحة .

زفر (مجدى) بضيق ، وهو ينظر إلى النافذة الوحيدة فى الغرفة ، قائلًا :

ـ لقد سئمت النوم .. وسئمت هذا الفراش ، وسئمت كل شىء فى هذه المصحة .

سأله الأب :

ـ هل ترغب فى العودة إلى المنزل ؟

قال (مجدى)، وهو يمرر أصابعه بين خصلات شعره :

ـ لا أعرف .. لا أعتقد أن هناك ما يغرينى أيضًا بالعودة إلى المنزل .

قال الأب بدهشة :

ـ كنت أظنك متلهفًا على ذلك .

تطلع إليه الابن بعينيه المرهقتين ، قائلًا :

ـ صدقنى يا أبى .. لا أعرف .. لقد فقدت الإحساس باللهفة تجاه أى شىء ، ولا أدرى ما سبب ذلك .. الإحساس الوحيد الذى أدركه وأستشعره داخلى ، هو الشعور بالملل والاختناق فى بعض الأحيان .

تألم الأب لسماع هذا القول من ابنه ، إلا أنه قال له :

ـ لولا أننى أراك الآن راقدًا أمامى ، لاعتقدت أن شخصًا آخر هو الذى يتكلم ؛ فأنا لم أعهد هذه الروح فيك .

قال له (مجدى) . وهو ينظر إلى سقف الغرفة :

ـ وهل تصورتنى يومًا ـ مدمنًا ـ يسرق ليستنشق الهيروين ؟ .. لا أعتقد أن ثقتك المعهودة فى شخصى مازالت باقية .

جلس الأب فى المقعد المواجه له ، ممسكا بيديه ، وهو يقول :

ـ بل ثقتى بك كما هى يا (مجدى) .

نظر إليه (مجدى) ، قائلًا :

ـ أشكرك على هذه المحاولة من جانبك لرفع معنوياتي ، ولكن حتى لو كانت هذه الثقة موجودة ، فأنا لم أعد أستحقها .

قال الأب :

ـ اسمعنى يا (مجدى).. لقد أخبرنى الطبيب منذ لحظات أنك قد شفيت تمامًا، ووافق على خروجك من المصحة .

وانتظر الأب أن يرى ملامح الفرحة على وجه ابنه ، لسماعه هذا القول ، ولكنه استقبل النبأ بفتور ، قائلًا دون اكتراث :

ـ إذن .. سأعود إلى المنزل .

قال له الأب مشجعًا :

ـ نعم .. وسننسى ما فات .. ستعاود حياتك الطبيعية مرة أخرى ، وتستعد للسفر إلى (ألمانيا) لاستكمال دراستك هناك .. لقد مررت بأزمة ، ولكنك تغلبت عليها .

(مجدى) :

- لا أعتقد أننى سأستطيع أن أعاود حياتى الطبيعية .
بعد أن أصبحت فى نظر الناس مدمنًا ، كما اننى غير مستعد أو مؤهل نفسيًا الآن للحصول على الدكتوراه فى الإلكترونيات كما اتفقنا .

الأب :

- لا تأبه كثيرًا للناس ، فكل شىء سيُنسى بعد حين ، وبالنسبة للدكتوراه يمكن تأجيلها ، فأنا أعرف أنك غير مستعد نفسيًا الآن .. إنك بحاجة لشىء من الراحة والهدوء ، واستعادة ذاتك وقدراتك ؛ لذا فستسافر إلى العزبة ، حيث الهدوء والطبيعة ، وستقضى فترة هناك ؛ لتنسى خلالها كل ما مر بك ، وبعدها ستكون قد تغلبت على هذه الأزمة ، وعلى كل المشاكل ، وستعاود مواصلة الطريق من جديد .. أنا واثق من ذلك .

ونهض (عبد الحميد) ، قائلًا :

- والآن .. هيا استعد لارتداء ثيابك ومغادرة المصحة ، إلى أن أنتهى من استكمال إجراءات خروجك مع الطبيب .

وبعد فترة من التردد نهض (مجدى) متثاقلًا لارتداء ثيابه ..

لقد كان على حق ..

إنه لم يشعر بالاهتمام بشىء .. أى شىء ..

* * *

٢ ـ زهرة فى بستان ..

استمر (مجدى) فى السير بين المزارع ، وهو يتأمل الطبيعة من حوله شاردًا .. لقد مضى عليه أسبوع الآن فى مزرعة والده ، وقد أحس هنا براحة غريبة ، جعلته يشعر بحب قوى لهذا المكان ، وتلك البلدة ، وعلى الرغم من أنه جاء إلى هذه المزرعة مرات عديدة من قبل بصحبة والده ، وأحيانًا بمفرده ، إلا أنه لم يستشعر هذا الحب تجاهه من قبل ، بل إنه كثيرًا ما كان يشعر بالملل ، ويبحث عن سبب للعودة السريعة ، أما هذه المرة فالأمر يختلف ، ولا يدرى ما إذا كان السبب فى ذلك هو رغبته فى تجنب أصدقائه ومعارفه فى (القاهرة) ، ممن عرفوا قصته مع الإدمان ، وممن رأى فى أعينهم نظرة الشفقة من أجله ، وهم يزورونه فى المصحة ، أم لأنه وجد فى هذا المكان هدوءه النفسى وطمأنينته ، بعيدًا عن الكثير من الزيف الذى يراه فى المدينة .

لقد غيرت أزمته وصراعه مع نفسه ، خلال رحلته للعلاج من الإدمان ، الكثير من نظرته إلى الأمور ، فغدا وكأنه قد تحول إلى شخص آخر ، لم يعد تكالبه على

النجاح والتفوق ، وذلك الطموح الزائد المندفع ، الذى غرسه فيه الأب منذ الطفولة ، هو الذى يحركه ويقود خطواته .. لم تعد المنافسة والإصرار على أن يكون الأول دائمًا ، هو شغله الشاغل ، بل اختلفت نظرته للحياة ، وأصبح أكثر ميلًا للتأمل ، وتقبلًا لما تجود به عليه الحياة ، دون رغبة فى المنافسة .. لقد تملكه إحساس قوى بأنه التقى ، أو فى سبيله للالتقاء بذاته فى هذا المكان ، حيث أصبح منسجمًا مع الطبيعة حوله ، متآلفًا مع الهدوء الذى يلف هذه البلدة وأهلها البسطاء ؛ لذا فقد رفض العودة مع والده إلى (القاهرة) ، عندما اقتضت ظروف عمله منه ذلك ، وطلب البقاء لعدة أسابيع أخرى فى المزرعة .. ولم يعارض الأب ، وخاصة بعد أن لمس بنفسه ما طرأ على ابنه من تحسّن فى حالته الصحية والنفسية ، منذ أتى به إلى هذه المزرعة .

واقترب (مجدى) من مزرعة ريفية صغيرة فى أثناء سيره ، يحوطها سور طينى متوسط الارتفاع ، يتوسطه باب خشبى كبير موارب قليلًا ، وفجأة وجد دجاجتين تنفذان من فتحة الباب الموارية ، وتقفزان فوق قدميه ، ثم تنطلقان وسط المزارع وهما تصيحان ..

وعلى الرغم من الارتباك ، الذى أصابه من اندفاع

الدجاجتين عبر الباب الموارب ، على هذه النحو المفاجئ ، إلا أن ارتباكه الحقيقى حدث عندما رأى أمامه تلك الفتاة ذات الثوب الأخضر ، وهى تخرج من وراء الباب الخشبى ، محاولة اللحاق بالدجاجتين ..

كانت الفتاة رائعة الجمال ، بدت بشعرها الذهبى وعينيها الخضراوين ، ووجهها الوردى ، وكأنها إحدى فتيات شمال (أوربا) ، وليست فتاة من الريف المصرى .

واندفعت الفتاة تلاحق الدجاجتين ، محاولة الإمساك بهما ، دون أن تأبه لوجود (مجدى) ، الذى وقف يحدق فيها لحظة ، ثم وجد نفسه يندفع خلفها ، وهو يحاول أن يساعدها فى الإمساك بإحدى الدجاجتين ، وتمكنت الفتاة من الإمساك بإحداهما ، فى حين بذل (مجدى) مجهودًا للحاق بالثانية ، التى أخذت تراوغه بين المزروعات ، حتى اختل توازنه ، وتعثرت قدماه ، فسقط فوق الأرض الطينية بكامل ثيابه ، فى اللحظة التى تمكن فيها من الإمساك بالدجاجة ، واقتربت منه الفتاة ، وفى يدها الدجاجة الأخرى ، وعلى وجهها أمارات الحرج ، وهى لا تدرى ماذا تقول ، فنهض هو واقفًا على قدميه ، وقد اتسخت ثيابه من أثر سقوطه فوق الأرض الطينية ، ومد لها يده بالدجاجة ، قائلًا :

- تفضلى .
قالت له الفتاة متلعثمة ، وقد ازداد حرجها :
- أشكرك .. وآسفة بشأن ...
وأشارت إلى ملابسه ، ثم وجدت نفسها دون سبب تنخرط فى الضحك ، فنظر إليها (مجدى) فى البداية مندهشا، ثم انتابه شىء من الغضب لسخريتها منه على هذا النحو، فقال لها وهو يحدجها بنظرة ثابتة تنم عن غضبه :
- أهذا جزاء من يمد للآخرين يد المساعدة ؟
وضعت يدها على شفتيها ، لتمنع نفسها من مواصلة الضحك ، ثم انتظرت حتى تهدأ قليلًا ، لتقول له :
- آسفة ، ولكنى لم أجد فى نفسى القدرة على مقاومة الضحك ، فقد أصبحت ثيابك .. أعنى .. على كل حال أرجو ألا تغضب منى .
نظر (مجدى) إلى ثيابه .. ثم إليها ، وكان من المستحيل أن يستمر فى غضبه ، وهو يتحدث إلى فتاة تملك كل هذا القدر من الجمال ، وهذا الصوت الرقيق الناعم ، الذى يتفق تمامًا مع ما حباها به الله من فتنة وسحر ، ووجد نفسه يبتسم لها وقد نسى غضبه تمامًا ، وسمع صوتًا ينادى الفتاة من الداخل ، قائلًا :
- (صفاء) .. هل أمسكت بهما ؟

أجابت الفتاة :
- نعم يا أمى إنهما معى .
وردد (مجدى) لنفسه :
- (صفاء) !!.. اسم جميل ، ينسجم تمامًا مع صفاء عينيها .
وخرجت امرأة فى ثياب ريفية من وراء الباب ، لتستطرد قائلة :
- إذن .. ماذا تنتظرين لإحضارهما ؟
وبدت الفتاة وكأنها لا ترغب فى التحرك من أمام (مجدى) ، ولكنها تحركت مضطرة إزاء خروج أمها ، وهى تومئ له برأسها ، قائلة بارتباك :
- معذرة .
وتوجهت نحو أمها ، التى نظرت إلى (مجدى) ، قائلة :
- من هذا الرجل ؟
همست لها الفتاة ، قائلة :
- كان واقفًا أمام الباب لحظة هروب الدجاجتين ، وقد ساعدنى فى الإمساك بهما ، ولكن ثيابه اتسخت من طين الأرض ، حينما سقط بإحدى الدجاجتين ، وأصبح فى حالة يرثى لها .
نظرت إليها أمها باستنكار ، قائلة :

ـ أيبذل الرجل هذا الجهد من أجل مساعدتك ، وتتسببين فى اتساخ ثيابه ، ولا تدعينه على الأقل لكى ننظفها له ، ونقدم له كوبًا من الشاى ؟!

شعرت الفتاة بالخجل من أمها ، وقد أحست أنها كانت عديمة الذوق حقًّا ؛ لأنها لم تتصرَّف على هذا النحو ، ونادته الأم ، فى اللحظة التى استدار فيها عائدًا ، قائلة :

ـ يا أستاذ .. يا أستاذ .

التفت إليها قائلًا ، وهو يتقدم نحوها :

ـ نعم .

قالت الأم :

ـ شكرًا لك يا بنى ، على ما قدمته من مساعدة .

ابتسم قائلًا :

ـ أنا لم أفعل شيئًا .

قالت الأم :

ـ تفضل لدينا ؛ لتشرب كوبًا من الشاى .

نظر إليها (مجدى) مترددًا ، ثم قال :

ـ أشكرك .. ولكن .

تأملها قليلًا وهو يحدجها بنظرة فاحصة ، ثم قال :

ـ ألست أنت الخالة (نعمات) ؟

نظرت إليه المرأة بدهشة ، وهى تقول :

ـ هل تعرفنى يابنى ؟

تطلَّع إليها ، قائلًا :

ألا تذكريننى ياخالة ؟.. أنا (مجدى عبد الحميد) .. ابن (عبد الحميد قنديل)، صاحب المزرعة المجاورة لكم .

هتفت المرأة بفرحة :

ـ (مجدى).. ابن (عبد الحميد) بك ؟!! أهذا معقول .

ثم تأملته بإعجاب ، قائلة :

ـ لقد كبرت يا (مجدى) ، ولم أعد أعرفك ..

وقالت مستدركة :

ـ آسفة .. أقصد يا (مجدى) بك .

ابتسم الشاب ، قائلًا :

ـ (مجدى) فقط .. كما تعودت أن تنادينى دائمًا .. كيف لم تعرفينى ياخالة (نعمات) ؟

قالت له المرأة :

ـ لقد ضعف نظرى ياولدى ، وأنت لم تأت إلى البلدة منذ خمس سنوات .

ضحك قائلًا :

ـ بل منذ ست سنوات .. لماذا لم تعودى تأتين إلى مزرعتنا ، كما كنت تفعلين من قبل ؟

أجابته قائلة :

ـ قلت لك إن نظرى قد ضعف ، ولم تعد صحتى كما كانت من قبل ، كما أن والدك يأتى إلى المزرعة فى زيارات خاطفة ، ولم يعد يحتاج إلىّ للعمل فى مزرعته ، كما كان يفعل من قبل .

نظر (مجدى) إلى (صفاء) ، قائلًا :

ـ إذن فهذه الفتاة هى ابنتك ؟

أجابته المرأة قائلة ، وهى تتحدث بفخر :

ـ نعم .. لم أرزق من الدنيا أنا وعمك (مسعود) إلا بها ، ولكنها تساوى عشرة رجال .

واستدركت عندما تذكرت السبب الحقيقى للحاقها به ومناداته :

ـ يا للعار !.. لقد نسيت السبب الذى دعانى لمناداتك .. تفضل يابنى .. أنكون نحن الذين تسببنا لك فى كل ما لحقك على هذا النحو ، ثم نتركك تعود إلى المنزل هكذا ؟

قال لها (مجدى) . وهو ينظر إلى (صفاء) :

ـ لا أريد أن أتسبب لكم فى مضايقة .

هتفت المرأة باستنكار :

ـ مضايقة ؟! إنك بمثابة ابن لى .

وبدت نظرة الاستنكار فى عينيها ، وهى تنظر إلى ابنتها ، قائلة :

ـ (صفاء) .. هل ستبقين واقفة تحدقين فينا هكذا ؟ هيا أعدى شيئًا من الطعام لـ (مجدى) بك .

حاول (مجدى) أن يعتذر ، ولكن السيدة تعلقت بذراعه ، وهى تدعوه إلى الداخل ، فى حين اندفعت (صفاء) تسبقها ، وعلى وجهها ملامح فرحة غامضة ، ولم يجد (مجدى) بدًا من الرضوخ إزاء إصرار المرأة ، قائلًا وهو يتبعها إلى الداخل :

ـ حسن .. ولكن يكفينى كوب من الشاى فقط .

قالت المرأة بإصرار حقيقى :

ـ والله لن يكون هذا أبدًا .. لابد أن تتناول الطعام معنا .. ألم توحشك فطائر خالتك (نعمات) ؟

(مجدى) :

ـ إننى لم أذق ما هو ألذ منها طيلة حياتى .

ضحكت بفخر ، قائلة :

ـ إذن .. لابد أن أعد لك اثنتين لتتناولهما بمفردك .

وهتف قائلًا :

ـ اثنتان مرة واحدة !!

سبقته المرأة إلى المنزل الصغير ، الذى يتوسط المزرعة ، فأخذ يتلفت حوله ، مستعيدًا ذكريات الماضى .

لقد جاء إلى هذا المكان قديمًا والتقى بالخالة (نعمات) ،

تلك المرأة الطيبة التى أحبها وأحبته ، ووجد فيها فى صباه وشبابه شيئاً من حنان الأم التى افتقدها .. واندهش من نفسه .. كيف تسنى له أن ينسى هذه المرأة الطيبة ، على الرغم من تعلقه الشديد بها فى صغره ، حتى أنه كان يسأل عنها بمجرد أن يضع قدميه فى البلدة !! من المؤكد أن طموحاته وانخراطه الشديد فى الدراسة ، ورغبته فى التفوق ، قد أنسته تلك العلاقة الإنسانية ، التى ربطته بهذه المرأة ، والتى لم يكن يتعين عليه أن ينساها .

ولكنه يتذكر أنه فى تلك المرة الوحيدة ، التى جاء فيها إلى هذا المكان ، وكان وقتها طفلًا صغيرًا ، لا يتعدى عمره عشر سنوات ، لم يكن على هذا النحو الذى يراه عليه الآن ، فقد كان مجرد بيت صغير ، تجاوره رقعة زراعية لا تتعدى القيراطين ، ولا شىء غير ذلك ..

حتى هذا السور الطينى والباب الخشبى ، لم يكونا موجودين وقتها . ولكن ها هو ذا يرى أمامه الآن مزرعة متكاملة ، بها عدد من الحظائر ، والبيت ارتفع دورًا ثانيًا ، وبنى على طراز حديث ، وإن كان يعتقد أن رقعة الأرض الزراعية مازالت كما هى .

حقًا إنها مزرعة صغيرة، لا تساوى واحدًا فى المائة من مزرعة أبيه ، ولكنها على كل حال تستحق لقب مزرعة ..

وتأمل (مجدى) مدخل البيت ، الذى تدلت على جدرانه أوراق شجرة العنب ، وامتدت إلى جواره مساحة صغيرة من نبات النعناع الأخضر ، الذى يرسل مع النسيم رائحته القوية الجذابة ، وقد أحس بارتياح كبير لوجوده فى هذا المكان ، الذى ساقه إليه قدره .

واستقبله في فناء المنزل رجل يرتدى جلبابًا وطاقية صوفية فوق رأسه ، وله شارب كث فوق شفتيه ، وقد بدا عليه أنه تجاوز الخمسين من عمره ببضع سنوات ، واستقبله بابتسامة مرحبة ، قائلًا :

ـ شرفت منزلنا يا (مجدى) بك .

قال له (مجدى) ، وهو يستقبل ابتسامته المريحة بابتسامة مماثلة :

ـ أنت عم (مسعود) .. أليس كذلك ؟

ومد له يده ليصافحه ، فأطبق عليها الرجل بحرارة وقوة ، لا تتناسب مع سنه ، قائلًا :

ـ أما زلت تذكرنى ؟

ابتسم (مجدى) ، قائلًا :

ـ إنك لم تتغير كثيرًا .. عدا أن شاربك قد ازداد شيبًا ، وكذلك ما زلت محتفظًا ببنيانك قويًا .

بدا أن هذه العبارة قد لاقت صدى فى نفس الرجل ، فانتفخت أوداجه وهو يقول :

ـ وأنت أيضًا لم تتغير كثيرًا ، ولا أدرى كيف لم تتعرفك هذه المرأة (يقصد زوجته) عندما شاهدتك .

وأمسك ذراعه ، وهو يصحبه إلى القاعة أو حجرة الضيوف كما يدعونها ، قائلًا :

ـ تفضل .. ادخل يابنى .

وجلس إلى جواره على إحدى الأرائك ، التى تتوسط القاعة ، قائلًا :

ـ كيف حال والدك (عبد الحميد بك) ؟

وقبل أن يهم (مجدى) بإجابته ، دخلت المرأة وهى تحمل فى يدها جلبابًا بنى اللون ، لتقدمه له قائلة :

ـ خذ هذا .. ارتده وأعطنى ثيابك ؛ لأنظفها لك .

حاول (مجدى) أن يعتذر ، ولكنه اضطر إلى أن يرضخ إزاء إصرار المرأة وزوجها ، اللذين ألحّا عليه أن يدخل إلى الغرفة المجاورة لاستبدال ملابسه ، وما إن انتهى وعاد إلى القاعة مرة أخرى ، حتى وجدها تظهر أمامه مرة أخرى ، وتسمر فى مكانه وهو يعاود تأملها ، قائلًا لنفسه :

ـ يا لها من فتاة جميلة !

وألقت عليه (صفاء) نظرة عابرة وسريعة ، ثم أسرعت تخفض بصرها ، وهى تدلف سريعًا إلى الغرفة ، لتأخذ منها ثيابه المتسخة ، وتابعها (مجدى) وهى تمر أمامه فى القاعة حاملة ثيابه معها ، وقد أحس أنه يرى فى كل مرة تقع فيها عيناه عليها لونًا مختلفًا من الجمال الطبيعى ، الذى ينسجم مع هذه الطبيعة السخية المحيطة بالمكان .. لقد بدت له ، وهو يتابع خطواتها ، وكأنها زهرة فى بستان ..

بستان الحب .

★ ★ ★



٣ ـ إعجاب متبادل ..

سأله (مسعود) ، وهو يدعوه لتناول الطعام :

ـ هل تفضل أن تتناول طعامك على الطريقة الإفرنجية ، أم بالطريقة البلدية ؟

سأله (مجدى) بدهشة :

ـ لا أفهم ؟

عم (مسعود) :

ـ أعنى أنعد لك الطعام على المائدة ، أم على الطبلية ؟

شهقت زوجته ، وهى تضرب صدرها بيدها استنكارًا ، قائلة :

ـ سأعد لك الطعام على المائدة بالطبع .. إن (مجدى) بك ابن عز ، ومعتاد على أكل الموائد .

وقال (مسعود) ، موجهًا حديثه إلى (مجدى) :

ـ على كل حال لدينا الاثنان .. المائدة والطبلية .

قال (مجدى) على الفور :

ـ بل سآكل على الطبلية .

وضحك (مسعود) ، قائلًا وفى صوته نبرة سخرية :

ـ ابن العز يريد أن يجرب شيئًا جديدًا .

وعادت زوجته تنظر إليه باستنكار ، احتجاجًا على تعليقه الساخر هذا ، ومالبثت أن أعدت الطبلية فى غرفة متسعة ، بها عدد من الوسائد ، وقد تراصت فوقها أصناف مختلفة من الأطعمة ، تكفى مجموعة من الأفراد ، ونظر (مجدى) إلى الطبلية بدهشة ، قائلًا :

ـ ما كل هذا ؟!

قال له (مسعود) :

ـ من خيرات الله .

وحثته الخالة (نعمات) على الجلوس ، قائلة :

ـ كل بالهناءة والشفاء .. إننا فى غاية السعادة لتشريفك لنا اليوم .

وجلس (مجدى) فوق إحدى الوسائد ، التى اصطفت حول الطبلية ، قائلًا :

ـ إننى سآكل من الفطير فقط .

ولكن عم (مسعود) ، الذى جلس إلى جواره ، سارع بتمزيق أحد أجزاء دجاجة كبيرة موضوعة أمامه ، ليضع نصفها أمام (مجدى) ، قائلًا :

ـ أتريد إغضاب خالتك (نعمات) ؟

ونادت (نعمات) ابنتها ، التى أتت تحمل صينية رقاق كبيرة ، وضعتها بصعوبة بين أنواع الأطعمة الأخرى ،

التى تزدحم بها الطبلية ، وطلبت منها أمها إحضار الماء ، والجلوس معهم حول الطبلية ، فأحضرت دورقًا من الماء وكوبًا كبيرًا ، وجلست فى مواجهة (مجدى) ، الذى بدا متحرجًا فى البداية ، ولكنه سُرعان ما أحس بزوال هذا الحرج تدريجيًا ، فقد انتابه شعور لا يدرى كنهه ، كما لو كان فى بيته ، يجلس وسط أناس يعرفهم جيدًا ويعرفونه ..
لقد أعطته هذه الجلسة تعويضًا عن الحرمان من الجو الأسرى ، الذى افتقده منذ طفولته .. وكان هناك أمر آخر ، يضفى على هذه الجلسة شعورًا ممتعًا .. كانت هناك تلك الفتاة رائعة الحسن ، التى تجلس فى مواجهته ، والتى كانت ترنو إليه من آن لآخر بنظرة ، هى خليط من الإعجاب والفضول ، جعلته يتساءل : كيف لم يتسنَ له رؤية هذه الفتاة من قبل على الرغم من الصلة القوية ، التى ربطت بينه وبين أمها فى الماضى ، ومن لقائه عدة مرات بأبيها ؟..

من المؤكد أن الخالة (نعمات) لم تكن تحضرها معها إلى المنزل ، عندما كانت تحضر للقيام ببعض أعمال الخدمة فى مزرعتهم ، وربما رآها وهى بعد طفلة صغيرة لا تتجاوز العامين ، وإن كان هذا قد حدث ، فهو يقع فى منطقة بعيدة عن ذاكرته ، ولكنه لم يكن يتخيل أن يلتقى

فى هذا الريف وفى هذا المكان البسيط ، بفتاة تملك كل هذا القدر من الجمال الأخّاذ .

وعلى الرغم من أن (مجدى) كان يشعر بجوع حقيقى ، إلا أن انشغاله بمراقبة الفتاة الجالسة أمامه جعله ينسى الطعام الشهى ، الذى تزخر به الطبلية ، ولاحظت المرأة تلك النظرات المختلسة ، التى يصوبها (مجدى) إلى إبنتها ، ولكنها تجاهلت ذلك ، وهى تمد له يدها بطبق آخر ، عليه زوجين من الحمام المحشو ، قائلة :

- لماذا لا تأكل يابنى؟.. ذق هذا الحمام سيعجبك طعمه.

وشتتت هذه الجملة انتباهه ، الذى كان مركزًا على الفتاة ، فتناول منها الطبق وهو مرتبك ، لا يدرى بم يجيب أو يفعل ، فى حين قال لها زوجها بأسلوبه الذى يحمل فى طياته شيئًا من التخابث :

- لعل طعامنا لا يعجبه .. وهل يقارن بتلك الألوان من الأطعمة ، التى يتناولها فى منزل والده ؟

ردَّ عليه (مجدى) ، قائلًا :

- على العكس ياعم (مسعود) .. أؤكد لك اننى لم أذق ألذ وأشهى من هذا الطعام ، الذى أتناوله بينكم الآن .

ثم ابتسم وهو يستطرد ، قائلًا :

- ولكنكم تبالغون فى إكرامى ، فأنا بالطبع لا أستطيع أن آكل كل هذا .

قال (مسعود) مستنكرًا :

ـ ولم لا ؟ .. إننى فى شبابى كنت أستطيع أن أتناول ضعف الموضوع أمامك الآن .

قال (مجدى) ، وهو يدرك أن فى قول الرجل الكثير من المبالغة :

ـ يعطيك الله الصحة يا عم (مسعود) .

وتظاهر (مجدى) بتقطيع أجزاء من الحمام ، وهو يلقى نظرات خاطفة على (صفاء) ، وقد أحس بأنها ترنو إليه بابتسامة متحفظة بدورها ، ويبدو أن الأب أيضًا قد لاحظ ذلك ، ولكنه لم يستقبل الأمر بغضب ، بل ابتسم قائلًا لابنته بشىء من الود :

ـ ما الذى دهاك يا باشمهندسة ؟ ألا تجاملين ضيفك ؟

انتبهت (صفاء) لنفسها ، وقد انتزعها صوت أبيها من انشغالها هى الأخرى ، باختلاس بعض النظرات لذلك الشاب الوسيم ، الذى ساقه إليهم القدر ، فقالت فى حرج :

ـ لماذا لا تأكل يا أستاذ (مجدى) ؟

ابتسم قائلًا ، وهو يحدق فى تقاطيع وجهها :

ـ وماذا أفعل غير ذلك ؟

ولم تجد ما ترد به عليه أكثر مما قالته ، فخفضت بصرها ، وتظاهرت بتناول طعامها ، فى حين قال هو :

ـ لقد سمعت عم (مسعود) يلقبك بالباشمهندسة ، فهل أنت خريجة كلية الزراعة ؟

قالت بصوت خافت :

ـ كلا .. إننى حاصلة على دبلوم من المدرسة الزراعية بالبلدة .

بدا على (مجدى) شىء من الدهشة ، فقد بدا له من تصرفات الفتاة وطريقة حديثها ، أن لديها ماهو أكثر من مؤهل متوسط ، وقال له الأب ، وقد ادرك مغزى تلك النظرة ، التى ارتسمت على وجه (مجدى) :

ـ (صفاء) حاصلة على دبلوم زراعى حقًا ، ولكنها أفضل من نظيراتها الحاصلات على بكالوريوس فى الزراعة ، فقد تمكنت ، خلال فترة قصيرة بعد انتهائها من الحصول على الدبلوم ، من تحويل هذا البيت الصغير إلى مزرعة حقيقية ، بفضل ذكائها ومجهودها ، وصلابتها التى تشبه صلابة الرجال ، فهى التى تولت رعاية القيراطين ، اللذين نمتلكهما ، لتعطى أفضل إنتاجية من الخضراوات ، وأقامت فى قطعة الأرض اليابسة التى نمتلكها والمحيطة بالبيت ، عدة حظائر للبهائم والطيور بأنواعها المختلفة ، بالإضافة إلى منحل لاستخراج العسل ، وأصبحنا بفضل الله ثم بفضلها، مستورين

والحمد لله ، نتناول كل ما نشتهيه من طعام من مزرعتنا ، ونبيع الباقى لعدد من التجار الذين نتعامل معهم ، بما يكفل لنا دخلًا طيبًا للغاية .

وكان فى صوته ما ينبئ عن الزهو بابنته ، حيث استطرد قائلًا ، وكأنه يلوم نفسه هذه المرة :

ـ هل تصدق ؟.. لقد عارضتها فى البداية فى إنفاق مبلغ صغير ، كنت أحتفظ به للزمن ، ولكنها ظلت تقنعنى باستخدام هذا المبلغ فى مشروع صغير ، يدر علينا دخلًا جيدًا ، إلى أن وافقتها فى النهاية ، فكانت النتيجة كما ترى ، ولك أن تتخيل لو كنت قد تشبثت بمعارضتى إياها .. لقد تبين أنها أكثر منا ذكاءً ، واستعدادًا للمخاطرة ، ولولاها لبقينا فقراء ، نستدين لنصرف على القيراطين ، اللذين ساءت حالتهما .

وتضرج وجه (صفاء) بالاحمرار من هذا الثناء ، الذى يضفيه عليها أبوها ، فى حين ربتت الأم على ظهرها ، قائلة وهى تفتخر بها أيضًا :

ـ حفظها لنا الله .

ثم نظرت إلى (مجدى) قائلة ونبرة الافتخار مازالت واضحة فى صوتها :

ـ ألم أقل لك : إنها تساوى عشرة من الرجال ؟

وبادرها الأب ، قائلًا :

ـ عشرة فقط .. بل قولى عشرين .

وخرجت (صفاء) عن صمتها ، دون أن يفارقها ذلك الاحمرار الذى تضرجت به وجنتاها ، قائلة :

ـ أبى .. ألن تتوقف عن هذا الحديث ، كلما حضر إلينا شخص ما ؟ إنك تحرجنى وتضفى على ما لا أستحقه بكثير من المبالغة .

وردّ عليها أبوها ، قائلًا فى عناد :

ـ لو لم تستحقيه لما قلته ؟

وقالت (صفاء) فى إصرار أيضًا :

ـ لماذا ؟.. ما الذى فعلته .. أكثر من إعداد الحظائر لتربية بعض البهائم والطيور ، ومنحل للعسل .. هذا متوافر فى الكثير من المنازل الريفية الصغيرة الموجودة هنا .

وتحدث (مجدى) ، قائلًا :

ـ ولكن ليس بهذا الشكل الإنتاجى .. لقد رأيت هذا البيت فى الماضى ، اسمحى لى أن أقول إنه كان مجرد بيت متواضع ، مثل بقية البيوت الريفية البسيطة الأخرى ، أما اليوم فقد رأيت مزرعة حقيقية ، وهذا أمر يستحق الإعجاب بالفعل .

ولأول مرة تحدثت إليه ، وهى تنظر فى عينيه مباشرة ، دون خجل ، قائلة :

ـ أشكرك يا أستاذ (مجدى) .. إنها على أية حال لاترقى ، بل ولاتقارن بمزرعتكم ، أو بمعنى أصح عزبة الـ بك (والدك) ؛ لذا فعندما تبدى إعجابك بهذه المزرعة المتواضعة ، التي لا تضم سوى قيراطين من الأرض الزراعية ، وأربعة حظائر صغيرة للبهائم والطيور ، فهذا يجعلنى أتصور أنك ..

قاطعها ، وهو يلحظ ترددها ..

ـ أننى أسخر مما أراه وأسمعه .. أو أستخف به .. أليس كذلك ؟

قالت ، وهى تعود فتخفض صوتها وبصرها :

ـ هذه الأشياء ، كما قلت لك ، لا تقارن بما لديكم ، وبالأفدنة التي يمتلكها والدك .

قال بلهجة جادة :

ـ ألست فخورة بما أنجزته هنا ؟

عادت تنظر إليه فى كبرياء ، قائلة :

ـ بالطبع .

(مجدى) :

ـ إذن .. فلا داعي لأن تستهينى بما أصبحتم تمتلكونه الآن .. إن مزرعتنا أو عزبة الوالد كما تقولين ، متوارثة من عدة أجيال، والجهد والعرق الحقيقى يبذل فيها بوساطة بضعة عمال زراعيين ، وفلاحين يستأجرهم أبى ، أما هذه

المزرعة ، فقد أقمتها بجهدك وذكائك وإصرارك ، وهى وإن كانت صغيرة حقًا فقد بذلت فيها من الكفاح والعرق ما يستحق أن تفخرى به ، وترينها أكبر من مزرعة أبى ، خاصة وأنك قد كفيت بها والدك ووالدتك شر الحاجة ، جعلت لهما بوساطتها موردًا ماليًا طيبًا ، كما يقولان .

صمتت الفتاة ، وهى تنظر إليه بإعجاب وتقدير ، وكانت نفس النظرة فى عينى الأب ، الذى ابتسم قائلًا :

ـ يسلم لسانك يابنى .

وتكلمت الأم ، قائلة :

ـ دعك من الكلام الآن ، وأكمل طعامك .. لا تشغلاه بكثرة الكلام .

ولكن (مجدى) تناول المنشفة الصغيرة ليجفف بها يديه ، قائلًا :

ـ لقد شبعت والحمد لله .

قالت له الأم باستنكار :

ـ وهل هذا يسمَّى أكلًا ؟.. أكمل طعامك يابنىَ ..

وحاول الأب أن يمنعه من النهوض ، قائلًا :

ـ إنك لم تأكل شيئًا .

وابتسم (مجدى) ، قائلًا :

ـ بل أكلت كثيرًا جدًا .

ومطت الزوجة شفتيها ، قائلة :

ـ يبدو أن طعامى وطعام (صفاء) لم يعجبك .
(مجدى) :
ـ والله لقد أكلت أكلا لم أتناوله منذ سنوات .
وردت عليه قائلة ، وقد أسرها رده هذا :
ـ بالهناءة والشفاء .
ونهضت (صفاء) لترشده إلى الحمام ، لكى يغسل يديه ، حيث سبقته إلى الداخل وهو فى إثرها ، ولم يستطع (مجدى) أن يمنع نفسه من تأمل قوامها ، وهى تسير أمامه .. لقد كان قوامًا لا يقل جمالًا وفتنة عن وجهها الساحر ، وقال لنفسه :
ـ يا لها من فتاة .. كل ما فيها يستحق الإعجاب .. جمالها .. قوامها .. ذكاؤها .. صلابتها .. إنها الفتاة الأولى التى تمكنت من أن تجذبنى إليها على هذا النحو ومنذ أن وقعت عليها عيناى .
وعندما تناول منها المنشفة ليجفف يديه ، تلامست أيديهما لمسة سريعة ، لكنها كانت كافية لكى يشعر من خلالها .. أنها هى الأخرى تبادله نفس الإعجاب .. ونفس الشعور ..

★ ★ ★

٤ ـ إحساس حائر ..

وهمس لها (مجدى) قائلًا :
ـ إننى سعيد للغاية ، أن أرى فتاة مثلك فى هذا المكان..
ابتسمت قائلة ، وقد عادت وجنتاها للتورد ، وهى تنظر إلى الأرض :
ـ أشكرك .
قال لها ، وقد شجعته ابتسامتها على التحدث معها بطريقة أكثر توددًا :
ـ لماذا لا تأتين لزيارتنا فى المزرعة ؟
وهنا اختفت نظرة الخجل فى عينيها ، وعادت تحل محلها النظرة الشامخة ، التى تدل على الكبرياء والاعتداد بالنفس ، قائلة :
ـ لا أحب أن أذهب إلى مكان كانت أمى تعمل فيه خادمة.
قال لها (مجدى) بنبرة مؤنبة :
ـ إنك مخطئة ؛ فلم تكن والدتك أبدًا بالنسبة لى أو لأبى مجرد خادمة .
قالت ، وقد بدا أن هذا الأمر يلامس وترًا حساسًا فى نفسها :

- أيًا كان الوصف الذى ستختاره ، فإن هذا لن يغير شيئًا من الحقيقة .

(مجدى) :

- عيبك الوحيد هو أنك تبخسين كثيرًا من قدر نفسك ، ومن قدر المحيطين بك .

وتركها ليسبقها إلى الحجرة ، حيث كان أبوها قادمًا بدوره ليغسل يديه ، وبينما كان (مجدى) يتناول الشاى ، تحدث الأب ، قائلًا لابنته فجأة :

- لماذا لا تصطحبين الأستاذ (مجدى) ليشاهد المزرعة؟

قالت (صفاء) بشىء من التردّد :

- ربما كان لا يرغب فى ذلك .

ولكن (مجدى) قال لها سريعًا ، وهو يقفز من مكانه :

- بل إننى أرغب فيه للغاية .

ثم استدرك ، قائلًا :

- لو سمحت طبعًا .

وقالت له الأم :

- ألن تشرب الشاى أولًا ؟

دفع (مجدى) ما تبقى من كوب الشاى فى فمه دفعة واحدة ، قائلًا :

- هأنذا قد شربته .

وترددت الفتاة قليلًا ، وهى تنقل بصرها بين أمها وأبيها ، ثم مالبثت أن صاحبته إلى الخارج ، وأخذت تتنقل معه من مكان إلى آخر داخل المزرعة ، حيث أطلعته على حظائر الماشية ، التى كانت تضم بقرتين وجاموستين ، وحظيرة الطيور ، التى تضم أنواعًا مختلفة منها ، بالإضافة إلى الأرانب ، وقد أعدت الحظائر بطريقة تدل على براعة وفهم صاحبتها ، وإتقانها لعملها ، وكذلك طريقة الحصول على إنتاجية عالية ، من وراء تربية هذه الحيوانات والطيور ، وأبدى إعجابه بالمنحل الذى أقامته الفتاة ، حيث أخذت تشرح له طريقة جمع العسل من المنحل ، وقال لها (مجدى) ، وملامح الإعجاب مرتسمة على وجهه :

- ألم أقل لك إنك تبخسين كثيرًا من قدر نفسك ؟

ابتسمت قائلة :

- إنك تجاملنى كثيرًا .

(مجدى) :

- بل إننى أقرر حقيقة .

(صفاء) :

- أتريد أن تقول إنك لم تر ماهو أكثر تقدمًا مما رأيت ، فى مزرعتك .

بقى محتفظًا بابتسامته ، وهو يقول :

ـ أعتقد أننى قد أجبت على سؤالك هذا ، عندما كنا نتناول الطعام .. إن القيمة الحقيقية لما أراه هنا هى أنك أقمته بإمكانيات محدودة ، وبكدك وجهدك وذكائك ، على نحو يعادل عمل مجموعة من الرجال .

ثم استدرك ضاحكًا :

ـ ثم إنه ليس لدينا منحل للعسل .

سألته ، قائلة :

ـ هل أحضر لك بعضًا من العسل .

وضع يده على معدته ، قائلًا :

ـ بعد كل الطعام الذى قدمتموه لى .. مستحيل .

قالت بصوت خافت :

ـ بالهناءة والشفاء .

رمقها بنظرة تنم عن إعجابه قائلًا ، وقد خرجت الكلمات منه تلقائيًا :

ـ كم أنت جميلة ورقيقة .

نظرت إليه بدهشة ، وقد باغتها هذا التعبير ، دون أن تدرى ماذا تقول ، وبعد برهة من الصمت ، قالت له :

ـ هل نعود إلى المنزل ؟

ولكنه أمسك يدها ، قائلًا :

ـ أريد أن أتحدث معك أكثر .

سحبت يدها من يده برفق ، وقد أحس بارتجافاتها ، قائلة :

ـ ما الذى تريد منا أن نتحدث بشأنه ؟

(مجدى) :

ـ ليتك تحدثيننى عن نفسك .

(صفاء) :

ـ إنك لن تعرف عنى أكثر مما سمعت ورأيت .

(مجدى) :

ـ لابد أن لديك الكثير مما تقولينه عن نفسك بعيدًا عن المزرعة ، وتلك الأشياء القليلة التى عرفتها عنك هنا .

(صفاء) :

ـ ولماذا تهتم بمعرفة المزيد عنى ؟

(مجدى) :

ـ لأننى مهتم بك .

ضحكت (صفاء) ضحكة قصيرة ، قائلة وفى صوتها نبرة متهكمة :

ـ لابد أنك تقول لنفسك : إنها فتاة ريفية غريرة ، يمكن أن يؤثر فيها إبداء شىء من الاهتمام ، واستخدام بعض العبارات المنمقة ، ولعلك تظن الآن أننى أكاد أقفز من السعادة ؛ لأنك قلت لى : إنك مهتم بى :

قال لها (مجدى) ، وقد بدا الغضب واضحًا على وجهه :

- أهذا ما تظننينه بى ؟

لم تنطق بحرف ردًا على سؤاله ، بل بدا على وجهها تعبير متردد حائر ، وعندما كاد يهم بالانصراف ، استوقفته قائلة :

- آسفة .. لعلك تقصد اهتمامًا من ذلك النوع الذى ظننته ، ويبدو أننى أسأت الفهم .

والتقت عيناه بعينيها ، وأحس بأنه هناك شىء ما فى عينيها يشده إليها .. إنها تلك النظرة الخجولة ، التى لا تنقص من إحساسها بذاتها ، وهمس لها قائلًا :

- بل إنك لم تسيئى الفهم ، إن اهتمامى بك بالفعل اهتمام خاص ، يحركه شعور لا أدرى كنهه ، ولكنه شعور حقيقى ، وليس محاولة منى للتغرير بفتاة ريفية كما تدعين .

ظلت صامتة وهى تنظر إليه ، ثم ما لبثت أن أدارت وجهها إلى الجهة الأخرى ، فأطلق زفرة قصيرة ، ثم قال :

- إنك لا تصدقيننى ، ولك الحق فى ذلك .

عادت تنظر إليه صامتة ، ثم ما لبثت أن قالت :

- بل أصدقك ؛ لأنه من الغريب أن لدى نفس الشعور .

ابتسم قائلًا :

- هذا ما أحسسته ، وأنا أتناول منك المنشفة لتجفيف وجهى .

قالت وفى صوتها رنة حائرة :

- ماذا يعنى هذا ؟

(مجدى) :

- يعنى أن هناك شىء ما ، يجذب كل منا إلى الآخر ، ويدفعه إلى الاهتمام به .

(صفاء) :

- هل تريد أن تقول إن شخصًا مثلك ، تربى على الثراء والرفاهية ، عاش حياة المدينة ، ولابد أن له العديد من العلاقات والنزوات العاطفية ، يمكن أن يصاحب فتاة مثلى ؟

وحدقها بنظرة معاتبة غاضبة فى آن واحد، وهو يقول :

- ما معنى هذا القول ؟.. لماذا تصرين على الإقلال من قدر نفسك ؟

(صفاء) :

- إننى لا أقلل من قدر نفسى كما تقول ، بل إننى شديدة الاعتزاز بها ، ولكننى أفضل دائمًا أن أتعامل مع الأمور بواقعية .

(مجدى) :

ـ ولكنك أنت نفسك على الرغم من واقعيتك التى تتحدثين عنها ، قلت : إن لديك إحساسًا ما تجاهى خلقته تلك اللحظات القليلة التى جمعت بيننا .

قالت ، وهى تنظر فى اتجاه إحدى حظائر الطيور :

ـ قد يكون هذا طبيعيًا بالنسبة لفتاة قضت معظم حياتها فى الريف ، وتحيا حياة بسيطة ، كانت تتأمل مزرعتكم الكبيرة ، وتسمع عن ثراء أبيك وأصله العريق فى البلد ، بشىء من الانبهار ، كان طبيعيًا وهى تسمع فى صغرها عن ابن الـ (بك) صاحب المزرعة ، الذى يرتدى أفخر الثياب ، ويحرص على حذائه لامعًا بصورة مستمرة ، ويلقى خلفه أوراق الشيكولاته الفاخرة ، أن تنبهر به عندما تراه ، ويصبح وجوده فى دارها حدثًا مثيرًا ، وأمرًا يستحق الاهتمام ، كما أنه من الطبيعى أن تنجذب إليه وإلى حديثه ، ولكن بالنسبة لك ..

قاطعها قائلًا :

ـ بالنسبة لى ، فقد لا أجد فى فتاة مثلك ما يستحق الاهتمام ، خاصة وقد ظننت أننى ألتقى بالعشرات من الفتيات المتمدينات الجميلات فى (القاهرة) .. أليس كذلك ؟

وصمتت دون أن ترد عليه ، فأجاب هو قائلًا :

ـ أولا : إننى بعكس ما تظنينني ، لست من ذلك الطراز اللاهى أو العابث ، الذى لا يشغله سوى ملاحقة الفتيات .. لقد كانت هناك الكثيرات من المعجبات بلاشك ، ولكننى لم أكن أهتم كثيرًا بهن ، ليس عن غرور أو إحساس متزايد بالذات ، ولكن لأننى عشت حياتى لا يشغلنى سوى شىء واحد ، وهو الاهتمام بالعلم والتحصيل والتفوّق ، وقد لا تصدقينني إذا قلت لك : إننى لم أبد اهتمامًا حقيقيًا ، ولم أحب فتاة واحدة طوال حياتى .. ولا داعى لهذه النظرة المندهشة فى عينيك ، فهذا ما حدث بالفعل .. لم يكن لدى وقت لذلك ، أو بمعنى آخر ، كان هناك ما يشغلنى عن ذلك .

ـ (صفاء) :

ـ ولكنى أظن أنك انتهيت من دراستك منذ عدة سنوات .

ابتسم (مجدى) ، قائلًا بحرارة :

ـ منذ سنتين فقط .. حصلت على البكالوريوس ، ولكن الطريق أمامى ما يزال ممتدًا ، فسوف أسافر إلى (ألمانيا) ، للحصول على الماجستير ، ثم الدكتوراه ، ولأستمر فى الخط الذى رسم لى منذ نعومة أظفارى .

تطلعت إليه بنظرة فاحصة ، قائلة بتساؤل :

ـ إنك لا تحب هذا .. أليس كذلك ؟

نظر إليها باستغراب ، قائلًا :

ـ لا أحبه ؟!.. إنه الطريق الذى اخترته لحياتى .

(صفاء) :

ـ أو ربما تقصد أنه الطريق الذى أختير لحياتك .

نظر إليها فى حيرة ، متسائلا :

ـ ماذا تعنين ؟

(صفاء) :

ـ لا أدرى .. ولكننى أحسست من لهجتك ، أنك غير راض عن الاستمرار فى حياتك على هذا النحو ، وربما أكون مخطئة .

اندهش (مجدى) لفطرة الفتاة ، التى أحست به سريعًا ، على هذا النحو ، فبادرها قائلا :

ـ إنك مدهشة .

نظرت الفتاة إلى الحظيرة مرة أخرى ، لتخفى خجلها ، ثم التفتت إليه قائلة :

ـ وثانيا ؟

سألها ، قائلا :

ـ وثانيا .. ماذا ؟

(صفاء) :

ـ لقد حدثتنى عن أولا : أنك لم تكن تهتم بالفتيات قدر اهتمامك بدراستك ، وبتحقيق التفوق المستمر ، ولابد أن أولا يتبعها ثانيا .

وابتسم مستطردا :

ـ ثانيا : أنك لست بالفتاة الريفية الغريرة كما تدعين ، إنك فتاة ذكية ، ذكاؤك يتجاوز عمرك ونشأتك ودراستك ، وهذا ما أحسسته فيك منذ الوهلة الأولى ، وذكاؤك هو الذى مكنك من إقامة هذه المزرعة ، التى لم يكن لها وجود منذ سنوات قليلة ، وبالتالى ففتاة مثلك ليست من ذلك النوع الذى يسهل خداعه ، أو التغرير به .. إنك فى نظرى أذكى من كثيرات رأيتهن فى (القاهرة) ولايُجدن سوى الحديث عن أمور تافهة على الرغم من أنهن تخرجن من أحسن المدارس ، وحصلن على أعلى المؤهلات ..

ثالثًا : إنك جميلة جدًا .. بل ورائعة الجمال ، ولعلنى لا أبالغ إذا قلت إنك أجمل فتاة وقعت عليها عيناى ، وأعتقد أن فى هذا ما يجعلنى .. بل ، لا بد أن يجعلنى أهتم وأعجب بفتاة مثلك .

ظلت صامتة ، تنظر إليه بعينين حائرتين مترددتين ، وتناول يدها بين يديه ، فلم تسحبها هذه المرة ، بل أسلمت أصابعها لأصابعه ، وهى شبه هائمة ، وفجأة استيقظ الاثنان من ذلك الإحساس الذى أحاطهما ، على صوت الأم وهى تنادى الابنة ، وقد أقلقها تأخرها على هذا النحو .

وتبخر الحلم .

★ ★ ★

٥ ـ شيء عابر ..

همس لها قائلًا قبل انصرافه :

ـ سأعود غدًا لأراك .

ولم تدر بم تجيبه ، وإن كانت قد أحسّت بشوق لهذا اللقاء ، قبل أن يفترقا ، وفى اليوم التالى لم يخلف موعده ، بل جاء يطرق باب المنزل ، دون أن يبحث حتى عن سبب يبرر به عودته على هذا النحو ، ونظرت إليه المرأة قائلة ، وملامح الدهشة بادية على وجهها :

ـ خيرًا يابنى .. هل حدث شىء ؟

قال وقد أحس بالخجل ؛ إذ إن شوقه ولهفته لرؤية (صفاء) دفعه إلى المجىء ، دون أن يفكر فى تفسير لحضوره هذا :

ـ كل خير يا خالة (نعمات) .. لقد شعرت بالرغبة فى زيارتكم مرة أخرى ؛ إذ قد تضطرنى الظروف للعودة إلى (القاهرة) خلال اليومين القادمين ، ففكرت فى زيارتكم ، لأشكركم على الحفاوة التى استقبلتمونى بها أمس ؛ لأننى لا أعرف متى ستتاح لى فرصة الحضور إلى البلدة مرة أخرى .

قالت له المرأة ، وقد ظهر على وجههاماينم عن عدم اقتناعها بحجته المختلقة هذه :

ـ على الرحب والسعة يابنى .. تفضل .

وقف فى منتصف القاعة ، وقد تملكه الارتباك ، فى حين أخذت عيناه تبحثان عن (صفاء) ، وعادت (نعمات) تدعوه إلى الدخول إلى حجرة الضيوف ، مكرّرة :

ـ تفضل يابنى .. تفضل .

سألها وهو يحاول أن يغالب ارتباكه :

ـ أين عم (مسعود) ؟

أخبرته قائلة :

ـ إنه يعمل الآن فى الأرض .

مسح بيده على جبهته ، ليجفّف العرق الذى بلّلها ، قائلًا :

ـ إذن سأعود فى وقت آخر .

قالت له الأم معترضة :

ـ لماذا يابنى ؟ وهل أنت غريب ؟

(مجدى) :

ـ كلا .. ولكن الأصول تقتضى ...

وفى تلك اللحظة ، فتحَ باب الحجرة ، لتدخل منه (صفاء) ، وهى تنادى أمها بصوت عال ، وما إن رأته ،

حتى احتبس الكلام فى حلقها ، وتسمرت مكانها ، وهو أيضًا توقف عن إكمال جملته ، وهو يحدق فيها بنظرات تنم عن مدى اشتياقه ، ووجد نفسه يقول لها بصوت هامس ، وكأنه لا أحد فى الحجرة سواهما :

ـ أهلًا يا (صفاء) .

ازدردت (صفاء) لعابها ، وهى ترد عليه ، قائلة :

ـ أهلا أستاذ (مجدى) .

وظلت الأم تنقل بصرها بينهما ، وقد فهمت بغزيرة الأم والمرأة ذلك الإحساس الذى يعترى كليهما ، والذى حاولت أن تنكره أمس عندما فضحته عيونهما ، حينما ذهبت لتناديهما ، ولم تدر الأم ماذا تفعل إزاء هذا الكشف ؟.. أتسعد لأن شخصًا مثل (مجدى) بن (عبد الحميد) بك ، صاحب الحسب والنسب ، معجب بابنتها ، ويهيم بها على هذا النحو الذى رأته فى عينيه ، أم تغضب من أجل ذلك ؛ لأن هذا الفارق هو نفسه الذى يجب أن يبقى حائلًا بين ابنتها وبين أن تبادله ذلك الإحساس ؟!

وقالت لها ، وصوتها لا يفصح عن إلحاح حقيقى هذه المرة :

ـ تصورى يا (صفاء) .. لقد حضر (مجدى) بك الآن فقط ، ويريد أن ينصرف على الفور ؛ لأنه يرى أن

الأصول تقتضى عدم وجوده فى حالة عدم وجود والدك فى المنزل .

وضغطت الأم على لفظ (بك) ، على عكس ماجرى به لسانها أمس .. ربما لتلفت نظر ابنتها للفارق الذى يفصل بينها وبين (مجدى) ، كما أنها أعادت إكمال عبارته المبتورة ، ربما أيضًا لتحضه على الانصراف ، تمسكًا بما كان يريد قوله ..

ووجدت (صفاء) نفسها ، تقول :

ـ يمكنك أن تعتبر نفسك فى منزلك يا أستاذ (مجدى) .

واصطنع (مجدى) ابتسامة ، حاول أن يتخلص بها من ارتباكه ، ومن حرج الموقف ، قائلًا :

ـ سأعتبره منزلى حقًا ، عندما تكف الخالة (نعمات) عن مناداتى بلقب (مجدى) بك ، وتكفين عن مناداتى بكلمة أستاذ .

قالت له الأم بطريقة موحية :

ـ الناس مقامات يابنى .

(مجدى) :

ـ لم يعد لهذه المقامات أية اعتبارات فى عصرنا الحالى ، بالنسبة لى على وجه خاص ..

واستطرد ، قائلًا ، وهو ينظر إلى (صفاء) :

- خاصة بالنسبة لكم .
ودعته (صفاء) للدخول إلى حجرة الضيوف ، قائلة :
- تفضل .
وصحبتاه إلى حجرة الجلوس، ثم سألت الأم ابنتها قائلة:
- لماذا كنت تنادينني ؟
وفى هذه الحالة فقط ، تذكرت (صفاء) ما جاءت من أجله ، فقالت :
- آه .. لقد جاءت (أم محمد) ، لتأخذ البيض والجبن الذى وعدتها به .
وهتفت الأم :
- (أم محمد) .. ولماذا لم تخبرينى من قبل ؟ أين هى ؟
(صفاء) :
- إنها تنتظر أمام حظيرة الماشية .
وسارعت الأم بمغادرة الحجرة دون استئذان ، لتلحق بتلك السيدة ، وابتسم (مجدى) ، قائلًا :
- يبدو أن (أم محمد) هذه مهمة جداً عند الخالة (نعمات) .
(صفاء) :
- إنها سيدة طيبة، لا عائل لها ، وتسكن فى دار صغيرة فى نهاية البلدة ، ونحن نتفاءل بها ، ونعطف عليها ،

فتحضر إلينا أول كل شهر ، لنقدم لها بعض البيض والجبن .
(مجدى) :
- ليتنى كنت أستطيع أن أفعل مثلها ، فآتى إليكم كل شهر ، ولو مرة واحدة ، بعد أن أرحل عن هنا .
ابتسمت (صفاء) ، قائلة :
- وهل أنت فى حاجة لبعض البيض والجبن ؟
واستدركت ، وهى تمنع نفسها من الضحك ؟
- أنا آسفة .
ابتسم قائلًا ، وهو يتأملها :
- على أى شىء ؟ إنك تزدادين جمالًا وإشراقًا عندما تبتسمين .. إن ما أحتاجه حقًا هو أن أراك ، وإذا كان ذلك متعذرًا بالنسبة لى كل يوم ، فعلى الأقل مرة كل شهر .
(صفاء) :
- هل يعنى هذا أنك لن تعود لتغيب عن البلدة عدة سنوات ، كما كنت تفعل من قبل ؟
ارتسمت ملامح الأسف على وجه (مجدى) ، وهو يقول :
- مع الأسف .. ستضطرنى الظروف بالفعل إلى أن أتغيب عنها عدة سنوات قادمة .

ارتسمت على وجهها ملامح الأسى ، وهى تقول :
ـ لماذا ؟ .. أقصد ما هذه الظروف ؟
(مجدى) :
ـ لقد أخبرتك من قبل أننى مضطر للسفر إلى (ألمانيا) ، لاستكمال دراستى فى الهندسة ، وهذا سيبعدنى عن البلدة ، بل عن (مصر) كلها بضع سنوات .
قالت بصوت مضطرب :
ـ هل تنوى السفر قريبًا ؟
(مجدى) :
ـ خلال الأسبوع القادم .. أعنى فى نهايته .
أطرقت بوجهها إلى الأرض وقد اكتسى بالحزن ، فى حين نهض (مجدى) من مكانه ليقترب منها ، قائلًا :
ـ لا أستطيع أن أصف لك .. كم أصبحت فكرة السفر هذه بغيضة بالنسبة لى الآن .
رفعت إليه وجهها ، وعيناها تطالبانه بالبقاء ، قائلة :
ـ هل ستغادر البلدة غدًا ؟
(مجدى) :
ـ بل بعد غد .. لابد أن أذهب إلى (القاهرة) ؛ لكى أهيئ نفسى للسفر .. ليتك تمنحيننى الفرصة لكى أراك بأية وسيلة ، فأنا لن أستطيع أن أتعلل بأى سبب آخر ؛ لكى آتى إلى منزلك .

قالت بصوت غاضب :
ـ وماذا بعد ؟
وحدق فيها متسائلًا :
ـ لا أفهم ماذا تعنين بهذا السؤال ؟
ـ أعنى وماذا بعد أن ترانى ؟.. إن الأمر أصبح الآن واضحًا أمامى .. لقد أعجبتك ، وتريد أن تبحث معى عن وسيلة للتسلية والتسرية عن نفسك ، فى هذا المكان الذى يبعث على السأم والملل ، وبعد أن تنتهى من شغل وقتك فى هذا المكان الممل ، ينتهى الأمر بكلمة واحدة .. « وداعًا ... لقد نعمت معك بوقت طيب » ثم تسافر إلى (ألمانيا) ، وقد نسيت الأمر برمته ، وربّما لن يتاح لك الوقت لكى تتذكر تلك الفتاة القروية البسيطة ، التى تمكنت فى يوم وليلة من إلهاب مشاعرها ، وإيقاظ أحاسيسها الساكنة ، التى لم تكن تعرف ولا تفهم .. معنى هذا التحول الغريب ، الذى طرأ على تلك المشاعر وتلك الأحاسيس ، قبل أن تراك .
نظر إليها (مجدى) بدهشة تمتزج بالسرور ، قائلًا :
ـ (صفاء) .. هل يعنى هذا أنك .. أنك ..
قاطعته ، وكأنها تنفى عن نفسها اتهامًا .
ـ كلا .. ليس على النحو الذى تتصوره .. ولكنى لا أنكر .. أننى ..

وسألها ، قائلًا :

ـ أنك ماذا ؟

وتراجعت برأسها إلى الوراء ، وقد بدت مندهشة من نفسها ، وهى تقول :

ـ لا أعرف كيف واتتنى الجرأة لكى أتحدث معك على هذا النحو ، وأن أفصح لك عن مشاعر خاصة بى بهذه الطريقة .

(مجدى) :

ـ ليس فى ذلك ما يعيب مطلقًا .

(صفاء) :

ـ بل إنه شىء غير لائق على الإطلاق ، فلا تنس أين نحن .. إننا فى بلدة ريفية صغيرة ، وأنا ابنة عم (مسعود) الفلاح .

(مجدى) :

ـ المكان لا يغير حقيقة المشاعر ، ولا يقلّل من قيمتها ، ولا ينقص من قيمة الفتاة مطلقًا أن تعبر عن أحاسيسها ، خاصة إذا كانت فتاة ناضجة ومتفتحة مثلك .

نهضت (صفاء) ، قائلة :

ـ سأذهب لأرى أمى ، ومن الأفضل ألا نلتقى بعد الآن .. وداعًا يا أستاذ (مجدى) .

ولكنه قبض على معصمها ، قائلًا :

ـ (صفاء) .. ليتك تفهمين وتصدقين ، أنك لست بالنسبة لى أبدًا ، ولن تكونى وسيلة للتسلية والتسرية عن النفس .. ليتك تصدقيننى فيما قلته لك أمس ، من أننى أحترمك وأقدرك ، وأن إحساسى بك كان مختلفًا تمامًا عن إحساسى تجاه أى فتاة أخرى قابلتها أو عرفتها ..

ليتك تعرفين كم أنا بحاجة لكى أراك مرة أخرى قبل سفرى ، فقد يكون فى هذا بعض التخفيف من الحرمان الذى سأعانيه ، بعد أن هيأ لى القدر أن ألتقى بالفتاة الوحيدة التى حركت مشاعرى .

جذبت معصمها من يده ، قائلة :

ـ إذا كان هذا هو شعورك حقًا ، فهذا يعنى أنه من الأفضل ألا نلتقى مرة أخرى .. ربما كان من الأفضل أن لقاءنا جاء قصيرًا ، وأننا سارعنا بإنهاء الأمر عند هذا الحد ، فلا معنى لأى لقاء .. سيعقبه هجر وحرمان ، إلا المزيد من الألم والشقاء ، يجب ألا نعطى الفرصة لهذا الشىء العابر ، الذى حدث بيننا ، لكى ينمو أكثر من ذلك .

(مجدى) :

ـ ولكنه ليس مجرد شىء عابر .

(صفاء) :

ـ فلنحوله نحن إلى ذلك ، فهذا أفضل لكلينا .

ولكن (مجدى) قال وكأنه لم يستمع لما قالته :

ـ سأنتظرك غدًا عند حديقة الموالح المجاورة لمنزلنا ، يجب أن أراك ، قبل أن أرحل .

قالت له (صفاء) ، وهى تحاول أن تبدو متماسكة :

ـ آسفة .. لن أستطيع الحضور .

وهمت بمغادرة الحجرة ، ولكنه لحق بها عند الباب ، مناديًا :

ـ (صفاء) ..

وفى تلك اللحظة حضر والدها ، وبدا غير مرحب به هذه المرة ، فصافحه بفتور ، وهو ينظر إلى ابنته فى ضيق .. أو قل فى غضب ..

* * *



٦ ـ فراق بلا لقاء ..

رقد مسعود على الفراش إلى جوار زوجته ، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الضيق ، فى حين كانت عيناه تحدقان فى سقف الحجرة ، وسألها قائلًا بلهجة غاضبة :

ـ كيف سمحت له بالدخول إلى المنزل ، ومجالسة ابنتك فى عدم وجودى ؟

قالت له زوجته ، بصوت يحمل نبرة اعتذار :

ـ لقد فوجئت بزيارته ، وما كنت أستطيع أن أمنعه من الدخول ، فهو فى النهاية ضيفنا .

قال لها بصوت به شىء من الاحتداد :

ـ بل إنه فى النهاية شخص غريب ، والضيف لا يدخل المنزل فى غياب صاحبه ، ويجالس ابنته بمفردها ، على هذا النحو الذى رأيتهما عليه .

وهنا تبدلت لهجة الزوجة ، وقد انبرت للدفاع عن ابنتها ، قائلة :

ـ وما الذى رأيتهما عليه ؟.. أنت تعرف ابنتك جيدًا . إنها تساوى عشرة رجال .. و (مجدى) تربى على يدى ، وكان يتناول طعامه بيننا على طبلية واحدة ، أمس .

قال غير مقتنع :
- إنك تنسين أننا فلاحون ، ونعيش فى بلدة صغيرة ، وهناك تقاليد لابد من اتباعها ، وأمور جرى العرف عليها .
(نعمات) :
- لقد تغيرت الدنيا يا (مسعود) .. هل نسيت أن ابنتك كانت تقف مع الرجال الذين أنشئوا تلك الحظائر ، وتباشر العمل معهم بنفسها ، وأنها هى التى كانت تسافر وتتفق مع التجار من عملاء المزرعة ، وتتحاسب معهم ، وتتولى الإشراف على نقل المحصول وبيع الطيور وتحميل العسل .. وكان بعضهم يحضر للاتفاق معها هنا على الشراء فى غيابك ؟ ما الضير إذن فى جلوسها لبضع دقائق ، مع شخص مثل (مجدى) .. كانت لأبيه أفضال كثيرة علينا ؟
(مسعود) :
- هل تتظاهرين بالسذاجة .. أم أنك لا تفهمين حقًا ما تبينته عيناى ؟..
إن الأمر ليس مجرد مجالسه بين البنت والولد ، ولكنى أرى أشياء تثير القلق .. ألم تلمحى تلك النظرة فى عينيها وعينيه ؟ لقد لاحظت أن كليهما يميل للآخر .
قالت الزوجة ، وفى صوتها رنة خوف :

- لا أخفى عليك أننى لاحظت ذلك أيضًا .. وهذا ما يقلقنى .. وربما كان هذا أيضًا هو ما دفعنى إلى عدم الترحيب كثيرًا بزيارته ، دون أن أدرى السر فى ذلك .
نهض (مسعود) من رقدته ، ليجلس على حافة الفراش ، وهو يقول :
- لا أدرى ما الذى جعلنى أبتهج فى البداية ، لإعجاب ذلك الفتى بابنتى ؟ ربما لأننى ظننته إعجابًا منه بذكائها وصلابتها ، وبالعمل الذى قامت به فى هذه المزرعة الصغيرة ، وربما لأننى أردت أن أباهى بها ، كفتاة تساوى الرجال ، بعد أن حرمنى الله الذكور ، وأثبت له أنها فعلت ما كان هو نفسه عاجزًا عن فعله بمزرعة أبيه ، الذى اعتمد على ثروته ، وعلى استئجار الآخرين لخدمته ، ولكنى لن أقبل أبدًا أن تتجاوز الأمور الحدود .
قالت له زوجته ، وقد نهضت بدورها لتربت على ساعده ، قائلة وهى تحاول أن تطمئنه :
- على كل حال ، الفتى سيغادر البلدة خلال اليومين القادمين ، فلا تشغل نفسك بالأمر .
(مسعود) :
- ومن أدراك أنه لن يعود مرة أخرى ليشاغل الفتاة :
(نعمات)

- إننا نعرف أن حضوره إلى البلدة قليل ، ولا أعتقد أنه سيعود إلى مزرعة أبيه إلا بعد عدة سنوات أخرى ، ويكون الأمر برمته قد انتهى ونسيناه .

(مسعود) :

- لا أعرف ما الذى يجعلنى أشعر بأن الأمر لن ينتهى عند هذا الحد ؟.. إننى أخشى على ابنتنا من تأثير ذلك الشاب عليها ، فهى برغم صلابة عودها وكرم خلقها ، ذات مشاعر حساسة للغاية ، إننى أعرفها أكثر من أى شخص آخر ، مثل هذا عندما يظهر فى حياتها ويبدأ فى مشاغلتها ، وهو ابن المدينة ، حيث الانطلاق بلا حدود ، والكلام المعسول ، فإن هذا قد يحطم قلبها فى النهاية ، خاصة وأنه لا أمل فى مجرد التفكير فى أن يتزوج مثله من فتاة مثل ابنتنا .

وهنا احتدت المرأة ، قائلة :

- لماذا ؟ ابنتنا يتمناها أى رجل فى البلدة .

قال (مسعود) :

- هأنتذى قد قلتها .. أى رجل فى البلدة .. يعنى أحد شباب البلدة من المتعلمين ، ولكن من أسر تماثل أسرتنا ، أبوه فلاح ، أو حتى صاحب متجر صغير ، ولكن ليس ابن (عبد الحميد بك قنديل) ، الثرى الكبير صاحب الحسب والنسب .. إنه ينتمى إلى عالم آخر غير عالمنا .

قالت الأم مترددة ، وكأنها تحلم :

- ولكن .. إذا فرضنا مثلًا أن الشاب قد أحبها .

(مسعود) :

- وحتى لو حدث هذا ، فأبوه لن يوافق على زواجه منها ، بل قد يدفعه هذا إلى أن يقلب الدنيا رأسًا على عقب .

عادت الزوجة ترقد على الفراش ، وهى تعود لتطرح هذا الحلم عن ذهنها ، قائلة :

- على كل حال ابنتك عاقلة ، ولابد أنها تفهم ذلك ، مما سيساعدها على التغلب على أى شعور تسببت فيه رؤيتها لهذا الشاب ، ومن ناحيتى فسأعمل على ألا يلتقيا مرة أخرى .

(مسعود) :

- هل ترين إذن أنه لا داعى لأن أتحدث مع (صفاء) ؟

(نعمات) :

- ليس هناك ما يدعو إلى حديثك معها ، فكما قلت لك ، ابنتنا فتاة عاقلة ، ثم إنه لم يحدث أمر كبير ، إلى الحد الذى يثير قلقنا على هذا النحو .

ولكن ما حدث خلال اليومين الماضيين كان كبيرًا بالفعل ، ولا تجدى معه الاستهانة ، أو إطلاق عدة مسميات

مختلفة عليه ، مثل كلمة الإعجاب والتقدير والاهتمام ، تلك الكلمات التى كان يحاول بها حتى (مجدى) و (صفاء) تفسير انجذاب أحدهما للآخر ، فقد كان الأمر يتضمن ما هو أكثر من الإعجاب والتقدير والاهتمام .. كانت ومضة حب قد أضاءت فى قلبين لم يعرفا الحب من قبل ، ولا دراية لهما بقدراته الخارقة على التسلل إلى القلوب ، وتملك المشاعر والأحاسيس ، تحت مسميات مختلفة تمهد الطريق لسلطانه الذى لا خلاص منه ، ومن الغريب أنه تسلط يقبله المحبون بنفس سعيدة راضية ، بلى إنهم حتى إذا تبين لهم فى بعض الأحيان مدى طغيانه وآلامه ، فإنهم لا يقبلون له بديلًا .. قط .

★ ★ ★

استلقت (صفاء) على فراشها ، ولكن لم يغمض لها جفن لأول مرة فى حياتها ، وهى التى تمتلك مقدرة لا يدانيها فيها أحد ، على النوم نومًا طبيعيًا وملء جفنيها ، مهما كانت المشاكل التى تصادفها ، والمتاعب التى تواجهها .. وتعجبت من نفسها .. إنها لا تستطيع أن تكف عن التفكير فيه .. لقد كانت تسخر دائمًا من بعض الروايات العاطفية التى تقرؤها ، أو تلك الأفلام التى تشاهدها على شاشة (التليفزيون) ، والتى يحدث فيها

هذا الانقلاب العاطفى السريع فى قلب الرجل والمرأة ، عند أوّل لقاء أو نظرة عابرة ، وكانت تعد ذلك من قبيل الاستخفاف بالعقول ، والرومانسية المفرطة لا تتلاءم مع العصر .

ولكن هذا حدث لها ..

شىء ما جعلها تنجذب لهذا الشخص تتعلق به ، منذ أن وقعت عيناها عليه .

ليس من أجل الفارق الطبقى والاجتماعى ، الذى يمكن أن يجعل فتاة مثلها تنبهر بشخص مثله ، خاصة وهى تراه يجلس معهم بشكل متواضع ليشاركهم طعامهم ، بعد أن سمعت العديد من القصص والروايات ، ربما كان بعضها مبالغًا فيه ، عن ثراء أبيه ، وعن الحرص الزائد الذى يوليه لابنه ، و كأنه يعده ليكون أميرًا ، ولكن مادفعها إلى التعلق به شىء آخر غير الانبهار .. شىء غامض لم تجربه من قبل ، جعل قلبها يخفق بشدة كلما التقت عيناها بعينيه ، وكلما لامست يدها يديه ..

ويبدو أنه هذا الانقلاب العاطفى ، الذى يزلزل حياة المرء فى ثوان معدودة ، وبلا أدنى مقدمات ، والذى ظنته من قبيل الخيال ، الذى لا يحدث إلا على شاشة (التليفزيون) ، أو فى تلك الروايات الرومانسية

المفرطة ، وقد عرفت شيئًا منه ، منذ أن التقت بـ (مجدى) ، وأن هذا الزلزال فى سبيله لإحداث المزيد من الخسائر فى نفسها ، وفى قلبها الذى تعلق به ..

نعم .. عليها أن تعترف بذلك .. إن لقاءها به ، وكلماته إليها أيقظا إحساسًا كانت تظنه خامدًا .

إنها تشعر بإحساس لذيذ يسرى فى عقلها وقلبها كالمخدر ، وهى تستعيد حديثه معها ، وإطراءه لها ، وأصبحت متلهفة على رؤيته وتتمنى لو طال بقاؤه معها مجددًا ، على الرغم من أنها تجاهد حتى لا ينكشف إحساسها هذا أمامه . ولكن عليها أن تعترف لنفسها أيضًا ، بأن هذا الإحساس الغامض ، الذى عرف طريقه إلى قلبها وحرك مشاعرها ، لن يجلب لها سوى الحزن والتعاسة ، فها هو ذا فى سبيله إلى الرحيل عن البلدة ، وإلى السفر إلى الخارج ، تاركًا إياها تتخبط وسط مشاعرها الحائرة ، والتى تعرف جيدًا أنها لن تعود لسابق عهدها ، بعد أن عرفت (مجدى) ..

ولكن حتى لو لم يكن سيسافر ..

وحتى لو بقى لسنوات قادمة فى هذه البلدة ، ولو زارهم كل يوم فى مزرعتهم ، فأى مصير ينتظرها معه ؟

إن كليهما ينتمى لعالم مختلف ، ولكليهما طريق مختلف ، وعليها أن تؤمن بذلك ، وأن تمتثل له .

عليها أن تجد الوسيلة لتوقف مشاعرها عند هذا الحد ، وتطفئ تلك الومضة التى أضاءت فى قلبها ، وستعرف كيف تنتصر على قلبها ونفسها ، كما انتصرت على عقبات أخرى اعترضت حياتها .. إنها لن تقابله على الرغم من أنها تتمنى ذلك ، وأنها كادت تتراجع عن قرارها الذى أعلنته به ، وتذهب للقائه ؛ فهذا اللقاء لن يضيف إلى مشاعرها ، التى تصبو إليه ، سوى المزيد من الضعف .. ومن الاستسلام ..

★ ★ ★

فاجأها (مجدى) وهى تقوم بإطعام الدجاج داخل الحظيرة ، حيث وجدته واقفًا بالقرب من باب الحظيرة ، وهو يحدق فيها بنظرة عتاب ، وسألها قائلًا :

- لقد انتظرتك .. فلماذا لم تحضرى ؟

أجابته قائلة ، وهى تحاول ألا تنظر إليه :

- قلت لك : إننى لن أحضر .

(مجدى) :

- ظننت أن قلبك لن يستجيب لقرارك .

ردت عليه فى كبرياء مصطنع :

- قلبى يخضع دائمًا لكل ما أتخذه من قرارات .

وتنهّد قائلًا :

- على كلٍّ .. لقد أردت أن أراك قبل أن أسافر .

واستدار عائدًا ، ولكنها لحقت به لتستوقفه ، قائلة :
ـ متى ستسافر ؟
(مجدى) :
ـ صباح الغد .
مدت له يدها مصافحة ، وهى تقول :
ـ فى سلامة الله .. أرجو أن توفق فى رحلتك إلى (ألمانيا) .
تناول يدها بين يديه ، وفى عينيه نظرة تعبر عن شوق جارف ، وهو يضغط أصابعها الرقيقة بين أصابعه ، وعادت تلك الارتجافة تسرى مرة أخرى من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ، وأرادت أن تسحب يدها من يده ، ولكنها لم تقو على ذلك ، وأحست أن إرادتها تخالفها ، وأنها تريد أن تحتفظ بتلك اللمسة السحرية لأطول وقت ممكن .
إنها الآن تشعر بمدى حاجتها إليه وإلى وجوده ، وتملكها إحساس جارف بالخوف ، لأنها ستفقده .
إنه سيرحل ، ولن تراه بعد اليوم .
لن ترى تلك العينين النافذتين ، ولن تشعر بمثل تلك اللمسة السحرية ، كلما لامست أصابعه يدها .
انه سيرحل ، ويترك لها التعاسة بعد رحيله ..
إن خوفها من فراقه أقوى من قدراتها .

وهمس لها قائلًا :
ـ (صفاء) .. لن أكذب على نفسى ، فهذا الإحساس الذى أحسه نحوك ليس له سوى معنى واحد .. أننى أحبك .. كنت أتمنى أن يصلك إحساسى هذا ، وأن تشعرى بمثله نحوى ، ولكن يبدو أن هذا لم يتحقق ، وأن الأمر ظل بالنسبة لك مجرد شىء عابر فى حياتك .
سألته فى تحد ، وهى تسحب يدها من يده :
ـ إذا كان الأمر بالنسبة لك يعنى أكثر من هذا ، وإذا كنت قد أحببتنى حقًا كما تقول ، فهل يمكنك أن تلغى رحلتك إلى (ألمانيا) من أجلى ؟.. هل يمكنك أن تتخلى عن طموحاتك ، من أجل أن تجنبنا لوعة الفراق ؟.. وأخيرًا هل يمكنك أن تجاهر بحبك هذا ؟
أطرق برأسه دون أن ينطق بكلمة ، فقالت له بغضب :
ـ هل رأيت ؟.. إنك لا تستطيع أن تفعل هذا .. يمكنك أن تتحدث كثيرًا عن الحب والمشاعر المتدفقة ، ولكن هذا هو أقصى ما تستطيعه ، فسوف تبقى دائمًا أسير طموحاتك ، وطبقتك التى تنتمى إليها ، والآمال التى يعلقها عليك أبوك .
وفى تلك اللحظة ظهر أبوها قادمًا من جهة الأرض الزراعية ، حيث لمحه واقفًا معها ، وهتف بابنته مناديًا

إياها بصوت غاضب ، واقترب منه (مجدى) لتحيته ، ولكنه قابله بوجه متجهم ، وهو يقول :

ـ لقد تجاوز الأمر الحد يا ابن الأصول .. ألم يعلمك أحد أنه لا يصح أن تدخل منازل الآخرين ، وتخاطب بناتهم دون استئذان ، ودون وضع أى اعتبار لصاحب المنزل ، أم أنك تحاول استغلال كرم ضيافتنا لك ؟

حاول (مجدى) أن يتكلم ، ولكنه قاطعه قائلًا :

ـ أم أنك تحتمى فى نفوذ أبيك .

وحاولت (صفاء) أن تتكلم ، ولكنه نهرها ، طالبًا منها أن تعود إلى المنزل ، وواصل حديثه قائلًا :

ـ اسمع أيها الشاب .. لقد كانت زوجتى تعمل بمثابة خادمة فى مزرعة أبيك .. وله أفضال علينا لا ننكرها ، ولكن هناك من الأمور ما لا اعتبار فيها لأسياد وخدام ، ولا بهوات ومزارعين .

(مجدى) :

ـ ولكننى لم أرتكب أى خطأ .

(مسعود) :

ـ بل ارتكبت العديد من الأخطاء ، منذ أن أدخلناك بيتنا ، فلا تظن أننى لم ألحظ محاولتك لمشاغلة ابنتى ، واستغلال ضيافتنا لك فى نصب شباكك حولها .

إن تلك الأساليب قد تكون مقبولة وسهلة فى المدينة ، أما لدينا ، فإنها تواجه بمنتهى الشدة والحزم ، والآن من الأفضل أن تنتهى صلتك بنا عند هذا الحد ، وأن تترك ذلك المكان فورًا .

ولم يجد (مجدى) ما يدافع به عن نفسه ، فاستدار مغادرًا المزرعة ، تشيعه دموع (صفاء) التى وقفت ترقبه من بعيد ..

ومن خلف قلبها ..

* * *



٧ ـ اختيار بإرادتى ..

وفى اليوم التالى ، وبينما كان (مجدى) يستعد لركوب سيارته ، استعدادًا لمغادرة مزرعة أبيه ، رآها تأتى راكضة نحوه ، ووقفت أمامه وهى تلهث من شدة التعب ، ومرت بينهما برهة من الصمت ، وكلاهما ينظر إلى الآخر ، وما لبثت أن قطعت الصمت بينهما ، قائلة :

ـ كنت أخشى ألا ألحق بك .

سألها ، قائلًا :

ـ وما الذى دفعك إلى الحضور ؟

(صفاء) :

ـ أردت أن أعتذر لك عما قاله أبى أمس .

قال وهو يتشاغل عنها بتلميع زجاج سيارته ؟

ـ كان أبوك على حق .. كان يجب أن أرعى حرمة ضيافته لى .. وأنت أيضًا كنت على حق ، فإن حبى لك لم يكن شجاعًا بالقدر الكافى ، لكى أعلنه على الملأ ، وأتخلى من أجله عن المخطط الذى رسمته لحياتى .

ثم تحول إليها ، قائلًا :

ـ لا داعى أن تعتذرى عن شىء .

قالت وقد خفضت بصرها إلى الأرض :

ـ هل تصدقنى ، لو قلت لك : إن الاعتذار لم يكن الهدف الحقيقى وراء حضورى إليك اليوم ؟

سألها ، قائلًا :

ـ إذن لماذا أتيت ؟

أجابته ، قائلة :

ـ لأن قلبى تمرد علىّ هذه المرة ، ولم يرضخ للقرار الذى اتخذته .. ربما كان حبك أضعف من الظروف المحيطة بك كما تقول ، لكن حبى لك أصبح أقوى من أية اعتبارات يتعين على أن أراعيها .

أمسك كتفيها قائلًا وقد غمره شعور جارف بالسعادة :

ـ حقًا .. يا (صفاء) ؟

أدارت له ظهرها ، وهى تنتحب قائلة :

ـ وماذا يجدى الآن من وراء الاعتراف بذلك ؟.. لقد حاولت أن أتجنب هذا الموقف .. أردت أن أتمسك بحجب هذا الاعتراف عنك ، وأردت ألا أعيش لحظة الفراق المضنية ، وأنا أراك ترحل أمام عينىّ ، مخلفًا تلك المرارة ، التى يتعين على أن أتجرعها بعد رحيلك .. حاولت ولكننى فشلت ، ووجدتنى مدفوعة إلى اللحاق بك ، وإلقاء نظرة وداع أخيرة عليك ، وعلى قصة حب لم تبدأ حتى انتهت .

قال لها هامسًا :

ـ ومن قال : إنها انتهت يا (صفاء) .. إن حبنا لن ينتهى أبدًا .

(صفاء) :

ـ إننا لن نكذب على أنفسنا ، ولكن عزائى الوحيد أن الأيام والسنين ستساعدنا على النسيان .

وأدارها (مجدى) فى مواجهته ، قائلًا :

ـ إننى لن أقوى على نسيانك يا (صفاء) .. إننى أدرك هذا فى كل لحظة أراك فيها أمامى ، ولن أقبل أن ينتهى حبنا على هذا النحو ، وأن أبقى محرومًا منك إلى الأبد .

وصمت قليلًا ، ثم قال :

ـ (صفاء) .. هل تتزوجيننى ؟

نظرت إليه وقد اكتسى وجهها بتعبير تمتزج فيه الدهشة بالسعادة ، ثم ما لبثت أن انطفأ هذا البريق الذى أضاء وجهها فجأة ، وعادت مسحة من الحزن تظلل وجهها ، وهى تقول :

ـ أنت تعرف أن ذلك يعد من المستحيلات .

(مجدى) :

ـ ليس هناك مستحيل فى الحب .

(صفاء) :

ـ هناك فوارق كثيرة تفصل بيننا يا (مجدى) ، كما أخبرتك من قبل ، وأنت تعرفها أكثر منى ، ثم إن والدك لن يوافق على ذلك مطلقًا .

(مجدى) :

ـ لا داعى لأن نخبر أبى الآن .. فلنتمم زواجنا سرًا ، ثم تسافرين معى إلى (ألمانيا) .. وتدريجيًا سيتقبل الجميع الأمر ، وعندما نعود من (ألمانيا) لا يكون أمامهم سوى القبول بالأمر الواقع .

نظرت إليه (صفاء) بغضب ، قائلة :

ـ هل تريد منى أن أتزوج ، بدون علم أهلى ؟

(مجدى) :

ـ من قال هذا ؟.. انهم سيعلمون بالطبع ، وسأطلبك منهم رسميًا ، ولكننى أقصد دون علم والدى .. على أن يتم الزواج فى السفر ، وأعلمه به بعد سفرنا معًا إلى (ألمانيا).

(صفاء) :

ـ أبى لن يوافق على شىء كهذا مطلقًا .. وحتى لو وافق هو فإننى لن أقبله .

(مجدى) :

ـ ولكنك تعلمين جيدًا أن أبى لن يوافق أيضًا .. أنضحى بحبنا من أجل تمسك أبى باعتبارات بالية .

سألته (صفاء) ، قائلة :

- هل أنت واثق من أن هذه الاعتبارات بالية ؟

(مجدى) :

- لو لم أكن واثقًا من ذلك لما طلبت منك الزواج .

(صفاء) :

- لقد أخبرتنى منذ لحظات أن حبك لى ليس شجاعًا ، بالقدر الذى يجعلك تعلنه على الملأ ، وهذا يعبر عن مدى أهمية هذه الاعتبارات بالنسبة لك ؟

(مجدى) :

- قلت هذا ، لأننى لم أكن واثقًا من أنك تبادليننى الحب ، أما الآن وقد عرفت ذلك ...

قاطعته بحدة :

- أما الآن ، وقد عرفت ذلك ، فما زلت متمسكًا بإخفائه ، وتبحث عن زواج سرىّ ، لا يتعدى نطاق أسرتى ، إلى أن نهرب بهذا الحب والزواج إلى الخارج ، وكأننا نهرب بإحدى الممنوعات التى يتعين علينا إخفاؤها .

(مجدى) :

- لا تصفى مشاعرنا بمثل هذا الوصف .

(صفاء) :

- وما هى الصفة التى تريد أن أصف بها زواجًا سريًا ،

تحرص على إخفائه عن الآخرين ، وتخشى مواجهة والدك به ؟

(مجدى) :

- لماذا تصعبين الأمر علينا ؟

أطلقت زفرة قصيرة ، قائلة :

- الأمر صعب ومعقد بالفعل بالنسبة لكلينا ، ففى الوقت الذى يتعين علىّ فيه أن أسعد ، وأقفز من السعادة ؛ لأن الرجل الذى أحببته يطلب منى أن أتزوجه ، أجدنى عاجزة عن الشعور بهذه السعادة ، ومن حقى فى ممارستها ، فأنا أقدر الدوافع التى تمنعك من التصريح لوالدك برغبتك فى هذا الزواج ، ولكننى لا أستطيع أن أتقبلها ، وحتى لو وافقتك على ما تقول ، فإننى لا أستطيع أن أسافر معك إلى (ألمانيا) ، وأتخلى عن أسرتى الصغيرة هنا ، وقد تقدمت بوالدىَ السن ، وأصبحت أشعر بمسئوليتى نحوهما ، ونحو رعايتهما وإدارة شئونهما .. إننى أمثل بالنسبة لهما قيمة كبيرة يعتمدان عليها هنا ، وربما تقبلا الأمر ، إذا شعرا أن فيه سعادتى ، ولكننى لن أكون راضية أبدًا ، أو مستريحة الضمير .. وسيكون هذا هو نفس الشىء ، إذا ما طالبتك بأن تتخلى عن رضاء أبيك ، وعن طموحك فى السفر وتحقيق آمالك من أجلى ، كما طالبتك من قبل فى لحظة

تحذ .. وهكذا ترى أن الأمر شائك ومعقد ، وأنه لا مناص لنا من الفراق ، والاحتفاظ بذكرى هذا الحب باقية فى صدورنا .

حاول (مجدى) ، أن يتكلم ، ولكنها وضعت يدها على شفتيه ، قائلة :

ـ أرجوك لا تقل شيئًا .. وداعًا يا (مجدى) ، وأرجو ألا تنساني .

وأراد أن يستبقيها ، ولكنها أفلتت نفسها من بين يديه ، وانطلقت بعيدًا ، دون أن تنظر خلفها ، ووقف (مجدى) يراقبها ، وقد ارتسمت ملامح الحزن والكآبة على وجهه ، ثم ما لبث أن استقل سيارته مبتعدًا عن المزرعة ، وعن البلدة التى عرف فيها حبه الوحيد ، وظلت صورتها ماثلة أمام عينيه طوال الطريق ، وبقيت كلماتها تتردد فى أذنيه ، وهو يستعيدها أكثر من مرّة ، ثم هتف قائلًا لنفسه :

ـ يا إلهى .. إننى لم أتخيل أننى سأحب أحدًا كما أحببت هذه الفتاة ، وبتلك الطريقة الخيالية ، ولم أكن أعرف أن الحب سيكون صعبًا وقاسيًا على هذا النحو ، الذى أعيشه الآن .. إننى لا أقوى على فراقها ، وأشعر منذ الآن بمرارة هذا الفراق ، وبتعاستى بدونها ، ولكن ما قالته كان هو الحقيقة .. إن حبنا ولد فى مناخ صعب معقد ، والعرض

الذى قدمته لها كان ينطوى على شىء من الجبن ، وينقصه الكثير من الشجاعة الحقيقية .. ولكن هل يمكننى حقًا مواجهة أبى بحبى لها ؟ وهل أستطيع أن أتخلى عن أحلامى فى استكمال دراستى فى الإلكترونيات فى (ألمانيا) ، من أجل البقاء إلى جوارها .

وردّد لنفسه ، قائلًا :

ـ أحلامى ؟!.. إنها لم تكن أبدًا أحلامى ؛ فلم تتح لى الفرصة لكى أختار حلمى بنفسى .. لقد كانت دائمًا أحلام أبى ، وكان دورى دائمًا هو تحقيقها ، والسير خلفها .. وربما لو كانت قد أتيحت لى الفرصة للاختيار، لاخترت هذه المزرعة الصغيرة ، ومشروعها الإنتاجى البسيط ، بعيدًا عن ذلك السباق الشاق ، الذى نذرت حياتى من أجله ، لأبقى دائمًا فى المقدمة .. لقد ظللت طوال السنوات الماضية ألهث وراء اختيار فُرِضَ علىّ ، وعشت حياتى فى اختبار، مكافأته الوحيدة هى رضاء أبى، وزهوى بنفسى ..

لماذا كان يتعين علىّ أن أدخل كلية الهندسة ، وقد كنت أشعر بميل طبيعى لدراسة الفنون ؟ ولماذا الإلكترونيات بالذات ، وقد ظللت أحس دومًا بضجرى من دراستها ، على الرغم من تفوقى فيها .. لقد كان ذلك لأن أبى اختار منذ طفولتى أن أدخل كلية الهندسة ، وأن ألتحق بهذا القسم

على نحو خاص .. نعم هذه هى الحقيقة التى حاولت أن أتنصَّل منها ، على الرغم من معرفتى جيدًا بها ، ومن أن عقلى الباطن كان يرفضها دائمًا ، كما كان يرفض كل مجريات حياتى الأخرى ، التى خضعت لمقياس أبى واختياره ، حتى تلك التفاصيل الدقيقة فى حياتى ..

وعندما أردت أن أعلن تمردى على هذا الاستسلام، الذى عشت به سنوات عمرى الماضية ، اخترت الطريق الخطأ للإعلان عن هذا التمرد، وسعيت إلى تدمير نفسي، ربما للاحتجاج على استسلامها واستكانتها على هذا النحو، فلجأت إلى طريق العبث والانحراف، وانتهى بى الأمر إلى إدمان الهيروين ، وعدة أشهر قضيتها فى فراش فى مصحة ، وكان الثمن الذى دفعته قاسيًا ، ولكن أبى اعتبره منعطفًا خاطئًا ؛ لا يحول دون الاستمرار فى الطريق الذى رسمه لى .. وقد آن الأوان للانعطاف بعيدًا عن هذا الطريق مرة أخرى ، والإعلان عن تمردى مجددًا ، ولكن فى هذه المرة سألجأ إلى الطريق الصحيح ، وإلى اختيار من صنعى ، ولن أكون مسلوب الإرادة تحت رحمة الهيروين ، الذى استبدلته بسلطان أبى على ، بل سأعلن عن إرادتى وأتمسك بها .. نعم .. سأخبر أبى أننى أريد الزواج من (صفاء) ، وسأعمل على تنفيذ ماأردته ، وبالوسيلة التى

تتناسب مع كرامة الفتاة التى أحببتها ، سواء وافق أبى على هذا أو رفضه .

وما إن استقر رأيه على ذلك ، حتى أحس بارتياح شديد ، وبثقة غير عادية تملأ نفسه ، فزاد من سرعة سيارته ، وكأنه يتعجَّل تنفيذ هذا القرار .

يتعجَّله بشدة ..

* * *



٨ ـ المواجهة ..

وأخيرًا وصل (مجدى) إلى القاعة الأنيقة ، فى الفيلا التى يقطنها مع أبيه ، حيث استقبله الخادم العجوز بترحاب ، قائلًا وهو يتناول منه حقيبته :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا (مجدى) بك

(مجدى) :

ـ أشكرك يا عم (توفيق) .. هل أبى موجود ؟

رد عليه الرجل ، قائلًا :

ـ إنه فى حجرة مكتبه ، مع أحد أصدقائه ، هل أبلغه بحضورك ؟

(مجدى) :

ـ كلًا .. لا داعى لأن تزعجه .

قال له الرجل :

ـ أزعجه ؟!.. إنه سيسر كثيرًا لحضورك ، فقد كان يتحدث معى أمس عن شعوره بالوحشة ، لغيابك كل هذه الفترة الطويلة .

ابتسم (مجدى) ، قائلًا :

ـ فترة طويلة .. الأمر لم يتعدى بضعة أيام .

رد عليه الرجل ، قائلًا :

ـ أنت تعرف كم يحبك أبيك ؟

شابت ابتسامته مسحة من المرارة ، وهو يقول بصوت خافت :

ـ نعم .. أعرف .. أعرف جيدًا يا عم (توفيق) .. من فضلك أعدّ لى فنجانًا من الشاى .

ـ حالًا .. ولكن ألن تصعد إلى حجرتك ، لتستبدل ثيابك أولًا .

(مجدى) :

ـ كلا .. سأنتظره حتى ينتهى من لقائه مع صديقه ، فى الردهة هنا .

واختار لنفسه مقعدًا وثيرًا ، فى أحد أركان الردهة ، يواجه غرفة المكتبة الخاصة بأبيه مباشرة ، وتعمد أن يخفض من إضاءة المكان ؛ فقد أحسّ أنه بحاجة لشىء من التركيز ، وإعداد نفسه للمواجهة القادمة .. تلك المواجهة التى لابد أن تسفر عن غضب جامح ، ربما عصف بحياته كلها ، ولكنه مع ذلك كان يتعجلها ، فليس هناك ما يدعوه لانتظار الرياح ، ما دام يعرف أنها قادمة ، ثم إن هناك أمرًا قد يكون فى صالحه ، وهو يستعد لهذه المواجهة الحتمية ، وهى حالته الأخيرة ، والشهور التى قضاها فى المصحة ..

لقد بدا أبوه غاضبًا عليه فى البداية ، واستقبل الأمر بانزعاج بالغ ، لأنه لم يتصور مطلقًا أن ابنه ، الذى كان يظن أنه يعرف كل تفاصيل حياته ، بعد أن رسمها له بالورقة والمسطرة ، يمكن أن ينحرف على هذا النحو ، ويسقط فى هاوية الإدمان ، ولكنه ما لبث أن أحس بخطورة الموقف ، وبدأ يبدى شيئًا من التعاطف الحقيقى معه ، تعاطف تحركه عاطفة الأبوة ، وليس عقلانيتها ، وربما جعله هذا يخفف من قبضته عليه بعض الشىء ، ويرى أنه كان مسرفًا فى حصاره له على هذا النحو المبالغ ، وإن كان بالطبع لم يجعله يحيد عن الطريق الذى رسمه له فى النهاية .

وربما كان من أثر هذه التجربة ، منحه بعض الحرية لاتخاذ قراراته ، خاصة ما يتعلق منها بحياته ومشاعره ، ولكنه لا يعتقد أن هذا سيصل إلى حد الموافقة على زواجه من (صفاء)، بل إن الأمر سيكون بالنسبة له بمثابة صدمة .

وأحسّ بشىء من التعاطف مع أبيه ، والتألم من أجله .. لقد أرهقه خلال الشهور الماضية ، وسبّب له الكثير من المتاعب والآلام ، وهو يمر بأزمته مع الإدمان ، ولم يكن يجب أن يتسبب له فى المزيد من هذه المتاعب والانفعالات ، ويفاجئه بتمرد من نوع آخر ، فهو فى

النهاية أبوه .. أبوه الذى أوقف حياته عليه ، ورفض الزواج من أجله ، ووفر له كل أسباب الحياة الكريمة ، وهو فى النهاية أيضًا لا يرجو له سوى الخير ، والوصول إلى أعلى مراتب النجاح ، كما أنه يحبه ، على الرغم من كل شىء، ويتمنى ألا يغضبه، ولكنه يريد حقه فى الاختيار.

يريد أن تكون له حياته التى يختارها ، وفتاته التى يحبها ، ويتزوجها بإرادته .

يريد أن يشعر بوجوده كإنسان له استقلاليته ، يحب ، ويرسم مستقبله بنفسه ، وليس مجرد ظل لأبيه .

وفى تلك اللحظة فُتح باب الغرفة ، ليخرج منها والده وبصحبته صديقه ، ونهض (مجدى) من فوق مقعده ، وهو ينظر إلى أبيه ، الذى لمحه ، فناداه بصوت يشف عن سعادته لرؤيته :

- (مجدى)!.. متى حضرت ؟

أجابه (مجدى) :

- منذ نصف الساعة .

قال له الأب :

- تعال لتسلم على عمك (حسين) .

وتقدم (مجدى) نحوهما ، مصافحًا صديق أبيه ، الذى ابتسم له قائلًا :

- إذن فأنت (مجدى) ؟

ثم نظر إلى (عبد الحميد قنديل) ، قائلًا :

- إن لك ابنًا وسيمًا يا (عبد الحميد) .

قال له الأب ضاحكًا ، وفى صوته رنة اعتزاز :

- وشديد الذكاء أيضًا .

قال صديقه :

- بالطبع .. وإلا ما كان قد اختار لنفسه هذه الدراسة الصعبة ، فى قسم الإلكترونيات .

وقال الأب لابنه :

- عمك (حسين) يقيم فى (ألمانيا) منذ ثلاثة عشر عامًا ، ويمتلك شركة تجارية هناك .. لقد اتفقت معه على أن يأخذ أوراقك ، قبل أن يعود إلى (ألمانيا) ، بعد أربعة أيام ، ليتولى تقديمها بنفسه إلى الجامعة هناك ، كما سيتولى ترتيب الأمر بالنسبة لإقامتك .. هذا سيسهل عليك أشياء كثيرة ، ويوفر عليك المشقة فى البداية .

ونظر إليه صديق والده ، قائلًا :

- يمكنك أن تكون مطمئنًا تمامًا ، فى هذا الشأن .

ثم صافح (عبد الحميد) ، قائلًا :

- ويمكنك أنت أيضًا أن تعتبره فى رعايتى ، منذ اللحظة التى تطأ فيها قدماه (ألمانيا) .

وشد الأب على يده بحرارة ، قائلًا :

- إننى أعتمد عليك فى هذا بالفعل يا (توفيق) .

وصافح الرجل (مجدى) بدوره ، ثم اصطحبه الأب حتى الباب الخارجى للمنزل ، حيث همس له قائلًا :

- لا تنس أن رعايتك له تعنى أيضًا رقابة تصرفاته ، داخل المنزل وخارجه ، ولا تتحرج من الاطلاع على حياته الخاصة ، ويجب أن تعلمنى لدى ملاحظتك لأى تصرف يمكن أن يثير القلق .. ستكون على اتصال دائم بى بالطبع .

قال الرجل مطمئنًا :

- ليس هناك ما يدعو لكل هذا القلق يا (عبد الحميد) .

قال (عبد الحميد) بلهجة حادة :

- بل هناك ما يدعو لذلك .. لقد عرف ابنى طريق الإدمان ، بوساطة بعض أصدقاء السوء ، واضطررت لإدخاله مصحة للعلاج من الإدمان ، حيث تغلبنا على الأمر بصعوبة ، وأنت الوحيد من بين أصدقائى ومعارفى الذى يعرف هذا الآن ، ولا أريد لذلك الأمر ، أو لأية صورة من

صور الانحراف أن تتكرر معه مرة أخرى ، خاصة ، وأن المغريات كثيرة فى دولة أوربية مثل (ألمانيا) .

وربت صديقه على يده ، قائلًا :

ـ اطمئن .. أؤكد لك أن ماحدث لن يتكرر .

قال له (الأب) بارتياح :

ـ الآن أرحتنى .

وعاد (عبد الحميد قنديل) إلى ابنه ، ليحيط كتفه بساعده ، قائلًا بجذل :

ـ لماذا تأخرت يومين عن موعد حضورك ؟ ألم تخبرنى أنك ستعود إلى (القاهرة) يوم الخميس ؟

(مجدى) :

ـ لقد أردت أن أستمتع أطول وقت ببقائى فى المزرعة ، فقد ارتحت للغاية إلى جو الريف .

(الأب) :

ـ أنت ترتاح مع جو الريف ، وتتركنى أنا نهبًا للقلق هنا .. لقد كنت أنوى أن أسافر إليك .

(مجدى) :

ـ لم يكن هناك ما يدعو لذلك ، فقد اتصلت بعم (توفيق) تليفونيًا ، وأخبرته أننى أجلت موعد حضورى .

ابتسم (الأب) ، قائلًا وهو ينظر إلى ابنه :

ـ على كل حال ، يبدو أن جو الريف قد أفادك ، وأن نصيحة الطبيب بشأن إرسالك إلى المزرعة ، كانت فى محلها ، فأنا أرى دلائل الصحة واضحة على وجهك .

ثم صمت قليلًا ، قبل أن يقول بصوت واضح النبرات ، ولا يخلو من جدية واضحة :

ـ أعتقد أنك لست بحاجة لأن أخبرك بأن ماحدث لن يتكرر فى حياتك مرة أخرى ، وأنها صفحة سنمزقها سويًا من كتاب حياتك .

أطرق (مجدى) ، قائلًا :

ـ إننى أكرر اعتذارى يا أبى ، وأعدك أننى لن أعود لارتكاب هذا الخطأ .

قال له (الأب) ، وهو يربت على كتفه :

ـ حسن .. والآن اصعد إلى غرفتك لتبدل ثيابك ، ثم تعال لنتحدث معًا ؛ فهناك عدد من الترتيبات ، التى يتعين علينا أن نتفق عليها ، بشأن سفرك ودراستك فى (ألمانيا) .

خطا (مجدى) خطوتين فى اتجاه الدرج المؤدى إلى غرفته ، ولكنه ما لبث أن توقف ، وقد بدت عليه ملامح التردد ، قائلًا لأبيه :

ـ هناك موضوع أريد أن أتحدث فيه معك أولًا .

تطلع إليه والده ، قائلًا :
- ألا يمكن لهذا الموضوع أن ينتظر ، حتى تنتهى من تبديل ثيابك ؟
قال (مجدى) ، دون أن يجيب على تساؤله :
- لقد قَرَرت أن أتزوج .
حدق فيه أبوه بدهشة ، مرددًا :
- تتزوَّج ؟!. ولم الاستعجال على الزواج ؟.. إن أمرًا كهذا يمكن أن ينتظر لما بعد عودتك من (ألمانيا) ، واستكمال دراستك ، فالزواج بالنسبة لك لن يمثل مشكلة ، لأن مئات الفتيات من أحسن العائلات يرحبن بالارتباط بشاب مثلك .
قال (مجدى) ، وهو يفجر مفاجأته الثانية :
- إننى لا أريد أن أسافر إلى (ألمانيا) .
ازدادت دهشة (الأب) ، وقد امتزجت هذه المرة بملامح الغضب ، وهو يقول :
- ماذا ؟
وظل صامتًا برهة من الوقت ، وكأنه لا يصدق ما سمعته أذناه ، ثم عاد يتساءل :
- ما هذا الذى سمعته ؟
قال (مجدى) ، وهو مستغرب بدوره ، من تماسكه على هذا النحو :

- قلت : إننى لا أريد السفر إلى (ألمانيا) .
وهنا انفجر (الأب) ، قائلًا :
- هل جننت ؟ أتضيع فرصتك فى أن تصبح أستاذًا فى أحد أهم العلوم والدراسات العصرية ، بمثل هذا الاستخفاف ، وتقول ببساطة : إنك لا تريد السفر إلى (ألمانيا) ؟! أنت تعرف أننا خططنا لهذا منذ سنوات بعيدة .
قال (مجدى) ، بهدوء :
- حضرتك الذى خطط ، لا أنا .
قال والده ، وقد بدا مستغربًا لهجته الجديدة هذه ، وهو الذى جبل على الطاعة والالتزام طوال حياته :
- وأنت وافقتنى على هذا .. بل كنت متحمسًا له .
(مجدى) :
- لأننى لم أرغب فى أن أغضبك ، ولأنه لم تتح لى الفرصة للاختيار والمفاضلة .
صاح والده :
- أى اختيار وأية مفاضلة .. الآلاف من الشباب مثلك يتمنون لو أتيحت لهم تلك الإمكانات ، التى وفرتها لك ، ويصبون إلى الوصول لفرصة تمكنهم من السفر مثلك، وسط ظروف مهيأة للعودة بدكتوراه فى علم

الإلكترونيات .. إننى لا أنكر تفوقك ونبوغك ، ولكنك أيضًا لا تستطيع أن تنكر مساعدتى لك ، ووقوفى خلفك ، حتى أصبحت قريبًا من هدفك .

(مجدى) :

- إننى لا أنكر ذلك مطلقًا ، وربما كان آلاف الشباب مثلى يتمنون بالفعل أن يحصلوا على مثل هذه الفرصة ، ولكن بالنسبة لى ، لا أرغب فى السفر ، ولا أرغب فى استكمال هذه الدراسة .

قال (الأب) ، وهو شبه مذهول :

- هكذا فجأة ؟!.. لم تعد راغبًا فيها ؟!.. هذا ليس كلامك .. من هى تلك الفتاة ، التى ترغب فى أن تتزوجها ، والتى استطاعت أن تحدث فيك كل هذا التبديل ، وتسلبك عقلك وطموحاتك ؟

أجاب (مجدى) ، قائلًا :

- لا علاقة للفتاة ، التى أرغب فى الزواج منها بذلك .

(الأب) :

- بل العلاقة واضحة للغاية .. إننى مندهش .. متى حدث هذا ؟.. وما الذى جعل هذا الاندفاع العاطفى يهبط عليك هكذا فجأة ؟

ومرت برهة من الصمت بينهما ، كان (الأب) خلالها

يحاول أن يتحكم فى غضبه وانفعالاته ، وتذكر التجربة المؤلمة التى مر بها ابنه مع الإدمان ، وأنه يتعين عليه أن يخفف من قبضته عليه قليلًا ، حتى لا يخسره نهائيًا ، فقال وهو يغالب غضبه :

- حسن .. إذا كانت تلك الفتاة تهمك إلى هذه الدرجة ، يمكننا أن ندبر الأمر ، فنقيم زواجًا سريعًا ، ثم تسافر معك ، أو تلحق بك حسبما تقتضى الظروف ، ولكن أخبرنى من هى وإلى أية أسرة تنتمى ؟

أطرق (مجدى) ، قائلًا :

- أبى .. أرجوك أن تفهمنى .. لست أرغب حقيقة فى هذا السفر ، ولا فى مواصلة تلك الدراسة .. ليس من أجل الفتاة التى أحببتها ، ولا لأننى أريد الزواج منها ، ولكن لأننى لا أميل لدراسة الإلكترونيات .. إننى لا أنكر أننى كنت متفوقًا فى كليتى ، وفى هذا الفرع بالذات ، ولكن لم يكن هذا التفوق بدافع حبى لتلك الدراسة ، ولكن بدافع حبى للتفوق فى حد ذاته ، والتقدم على الآخرين ، وهو الدافع الذى غرسته فىَّ منذ الصغر ، وجعلنى أسعى لإثباته دائمًا .

قال (الأب) ، وقد عاد لحدته :

- هراء .. الشخص لا ينجح فى شىء إلا إذا أحبه ، وأنت أحببت هذه الدراسة ؛ لذا فقد نجحت فيها وتفوقت ،

ولا أفهم ما هو العيب فى أن يكون الإنسان متفوقًا فى دراسته ، وفى عمله ، وفى أى مجال يمارسه ، وما هو الخطأ الذى ارتكبته فى أن أغرس فيك حب التفوق .. كان لابد أن تشكرنى من أجل ذلك .

قال له (مجدى) ، وقد وجد فى نفسه الشجاعة لينظر إلى عينيه مباشرة :

- لا يا أبى .. إننى لم تتح لى الفرصة لكى أحب شيئًا ما .. أى شىء إختاره بنفسى ولنفسى ، ولا يعيب الأب فى شىء أن يحرص على نجاح ابنه وتفوقه ، فهذا أمر طبيعى ، كما لا يعيب الشخص فى شىء أن يكون متفوقًا ، بل عليه أن يفخر بذلك ، ولكن ما أردته دائمًا ولم أحصل عليه طوال حياتى ، هو حقى فى الاختيار ، وفى أن أحب ما أتفوق فيه ، لأننى أردته منذ البداية ، وليس لأن أبى هو الذى أراده لى .. أن أكون إنسانًا بشريًا .. لا إنسانًا آليًا مبرمجًا ، لتحقيق هدف معين حُدد له منذ الطفولة .

نظر إليه (الأب) مليًا ، دون أن يبدو عليه أنه قد اقتنع بكلامه ، ما لبث أن قال :

- يبدو أن المخدرات التى أدمنتها قد أتلفت عقلك ، فأصبحت تقول كلامًا غير ذى معنى .

قال (مجدى) ، بثبات :

- إننى لم أكن أرى معنى الأشياء بوضوح ، مثلما أراها الآن .

(الأب) :

- أية معان .. حقك فى الاختيار .. وذلك الكلام الفارغ الذى تردده .. لقد حاولت أن تجرب هذا الاختيار مرة واحدة ، مستغلًا فرصة غيابى ، فاخترت أصدقاء السوء وإدمان الهيروين ، ولولا تدخلى فى اللحظة المناسبة ، لما تم إنقاذك من تلك الهاوية ، التى اخترت أن تلقى نفسك فيها .

(مجدى) :

- لقد كان إدمانى للهيروين نتيجة الكبت ، وحرمانى من حقى فى ممارسة حياتى بشكل طبيعى، يتاح لى من خلاله تبين الصح من الخطأ .. أردت التعبير عن نفسى بأية وسيلة ، ولا أنكر أننى قد سلكت الطريق الخطأ ، وأنك ساعدتنى على التغلب على هذه المحنة ، ولكنى تعلمت الكثير من تلك التجربة الخاطئة والفاشلة فى حياتى .. إنه لم يكن اختيارًا ، بقدر ما كان تعبيرًا عن كبت ، أو ربما كان نوعًا من التمرد ، أردت أن أثبت لك به أن الإنسان الآلى ، الذى برمجته لتحقيق أهداف حددتها أنت له مسبقًا ، يمكن أن يخطئ، وخطأ لا تتوقعه.. ولكنى استفدت من التجربة ،

وتعلمت منها ، واختيارى هذه المرة كما أخبرتك حقيقى وصحيح ، وعن إرادة واعية .

قال (الأب) متهكمًا ، وقد عقد ذراعيه أمام صدره :

- حسن .. ياذا الإرادة الواعية .. إنك لم تخبرنى حتى الآن من هى تلك الفتاة ، التى ترغب فى الزواج منها ، والتى خلبت لبك على هذا النحو ؟

(مجدى) :

- لابد أنك تعرفها ، أو سمعت عنها بحكم ترددك على البلدة .. إن اسمها (صفاء) ، وهى بنت الحاج (مسعود) ، صاحب المزرعة الصغيرة المجاورة لنا .

هتف (الأب) ، وقد جحظت عيناه :

- ابنة (نعمات) .

وأدرك (مجدى) أن العاصفة قادمة .. وعاتية .

★ ★ ★

٩ - مرحبًا بالحب ..

عندما غادر (مجدى) منزل والده ، حاملًا معه حقائبه ، بعد أن فشل فى إقناعه بزواجه من (صفاء) ، والحياة معها فى تلك المزرعة ، لم يكن فى ذلك ما يخالف توقعاته ، فقد كان يعلم جيدًا أنه سيتعرض لرد فعل عنيف من جانب أبيه ، وأنه لن يتقبل مثل هذا الأمر بأى حال من الأحوال ، وأن عليه أن يعد نفسه للانفصال عن أبيه ، وأن يتوقع طرده من المنزل .. واعتمد على الزمن ، وتقبل الأمر الواقع ، فى علاج تلك الجفوة والقطيعة ، التى حدثت بينه وبين أبيه ، بعد اتخاذه لقراره ، والتى لم يكن مستعدًا بأى حال من الأحوال لاستمرارها ، مهما فشلت المحاولات ، فحبه لأبيه فى النهاية ليس محل شك ، ومهما كان خلافه معه ، فلن ينس أبدًا تضحياته من أجله ، ولكنه كان مستعدًا لعمل أى شىء ، أى شىء مهما كان من أجل إرضائه ، غير التنازل عن حقه فى اختيار زوجته ، ومستقبله ، بعد أن قدم فى الماضى تنازلًا غير مشروط ، فلقلبه الحق فى اختيار الإنسانة التى يريدها ، ولن تكون عواطفه ومشاعره أيضًا ملكًا لأبيه ، كما أن من حقه أن يتوقف عن

الركض ، ويسأل نفسه : هل يريد الاستمرار فى هذا الطريق ، الذى وجد نفسه موضوعًا على بدايته ، وقيل له إنه يتعين عليه أن يواصله حتى النهاية .. أم لا ؟..

وهو واثق أنه لم يخطئ ، عندما اختار لنفسه هذه الوقفه ، ليحدّد لنفسه الطريق الذى يلائمه ويستهويه ، والزوجة التى يحب أن يرافقها فى هذا الطريق .

كل ذلك كان قائمًا فى ذهنه ، ومدركًا لصعوبته ، عندما اختار مواجهة أبيه برغبته فى عدم السفر وإكمال الدراسة ، ورغبته فى الاقتران بـ (صفاء) .. ابنة (مسعود) الفلاح و (نعمات) الخادمة كما يسميها ، ولكن الصعوبة الحقيقية كانت فى مواجهته لعم (مسعود) عندما ذهب إليه ليطلب منه يد ابنته ..

لقد بدا له عم (مسعود) أكثر تشددًا وصرامة من أبيه ، فى رفضه لمثل هذا الاقتران ، وكانت المفاجأة قد عقدت لسان (صفاء) عندما رأته مقبلًا نحوها ، وهو يجتاز بوابة المزرعة المفتوحة ، حيث توقف أمامها ، بالقرب من الشجرة الضخمة التى تجاور البوابة من الداخل ، وبدا وكأنه يعوض حرمانه من عدم رؤيتها خلال اليومين الماضيين ، يتأملها مليًا ، أما هى فقد بدت مرتبكة حائرة ، ولا تعرف كيف تخفى ملامح الفرحة فى وجهها ؛ لعودته ورؤيتها له من جديد ، وما لبث أن همس لها :

- لقد افتقدتك كثيرًا .. وكأن عامًا قد مرّ دون أن أراك .

همست له بدورها ، وهى تحاول التغلب على عقدة لسانها ، التى أحدثتها رؤيتها المفاجئة له :

- لماذا عدت ؟

(مجدى) :

- لأننى لم أعد قادرًا على الابتعاد عنك .. والحياة بدونك .

قالت وهى مستمرة فى محاولتها ، مغالبة مشاعرها :

- (مجدى) .. لقد أنهينا الأمر فيما بيننا فى اللقاء الأخير .

رد عليها (مجدى) قائلًا ، وفى صوته نبرة إصرار :

- لا يا (صفاء) .. الأمر لن ينتهى بيننا بأى حال من الأحوال ؛ فحبنا لا يمكن أن ينتهى بمثل هذه السهولة .. لم أكن أنا ولا أنت من دبر هذا اللقاء ، الذى جمع بيننا وألّف بين قلبينا فى لحظات قليلة ، لقد كان هذا اللقاء من تدبير القدر ، والقدر لن يرضى لنا بالحرمان ، بعد أن أذاقنا حلاوة الحب .

(صفاء) :

- (مجدى) .. إن مشاعرنا ، وتلك العبارات التى تستخدمها فى وصفها شىء ، والواقع شىء آخر .

(مجدى) :

ـ إذن سنغير هذا الواقع ، إذا كان يتعارض مع مشاعرنا ، فلا قيمة لشىء بدون الحب ، هذا ما أعنيه وأدركه جيدًا الآن .

قالت (صفاء) ، وفى صوتها نبرة حزينة :

ـ وكيف سنغير الواقع الذى نحياه ؟ ذلك لا يحدث إلا فى القصص الرومانسية ، فأنت ولدت ابنا لسيد ثرى ، ينتظرك مستقبل يطمح إليه آلاف من الشباب مثلك ، وعشت حياتك فى وسط اجتماعى لا يمكنك التنازل عنه ، أما أنا فقد ولدت ابنة لفلاح يعمل نصف الوقت ، فى القيراطين اللذين يمتلكهما من حطام الدنيا ، والنصف الآخر أجيرًا فى أراضى الغير ، وأم تتنقل من منزل لآخر ، من منازل أثرياء القرية ، لتقديم بعض الخدمات لهم ، تعتمد فى ذلك على جهدها وساعديها ، وحياتى هنا مرتبطة بهذه المزرعة الصغيرة، وبوجودى إلى جوار هذين الوالدين المكافحين .

(مجدى) :

ـ ولكن أباك لم يعد أجيرًا ، وأمك لم تعد تقدم خدماتها للآخرين ، كما كانت تفعل من قبل ، أليس فى هذا تغييرًا لواقع كان قائمًا .. تغييرًا كنت أنت السبب فى إحداثه بنفسك .

(صفاء) :

ـ هذا التغيير الذى تتحدث عنه أضاف لنا مزيدًا من الدخل ، يوفر لنا حياة طيبة وكريمة ، كما أنه وفر لوالدى بعض الراحة والاستقرار ، وهو تغيير خاص بنا وحدنا ، لكنه لا يمس الآخرين ، فأيا كان الأمر ، ما زلت فى النهاية ابنة عم (مسعود) الفلاح ، و (نعمات) زوجة الفلاح الأجير ، وما زال الفارق بيننا شاسعًا لنلتقى ، وخاصة فى بلدة صغيرة كهذه ، يُنظر إلى الفوارق الاجتماعية فيها بعين الاعتبار .

(مجدى) :

ـ سأثبت لك أنه لا قيمة لمثل هذه الفوارق التافهة ، أمام مشاعر الحب ، وأن بأيدينا أن نغير واقعنا ، مهما كانت العقبات ، إذا ما أردنا ذلك .. (صفاء) لقد جئت إليك اليوم لهدف واحد ومحدود.. هل تقبلين أن تتزوجينى ؟

(صفاء) :

ـ لقد سبق أن سألتنى هذا السؤال من قبل ، وكان ردى عليك واضحًا .

(مجدى) :

ـ هذه المرة أطلب منك الزواج بشكل يختلف عن المرة السابقة ، إنه سيكون زواجًا علنيًا ، نعلنه على الملأ ، ولن

يكون هناك سفر إلى (ألمانيا) ، بل سأبقى معك هنا فى هذه المزرعة ، وأسهم بنصيبى من المال الذى ورثته عن أمى ، فى تنميتها وتوسيع رقعتها ، أى أننا سنكون شريكين فى كل شىء .. فى الزواج وفى العمل .

كادت الفرحة تنطلق معبرة عن نفسها فى ملامح وجهها الفاتن ، الذى ازداد إشراقًا ، لكنها ما لبثت أن تراجعت عن إطلاق العنان لهذه الفرحة ، قائلة :

- هل أخبرت والدك بهذا ؟

أطرق ، قائلًا :

- نعم .

(صفاء) :

- وهل وافقك على قرارك هذا ؟

(مجدى) :

- كلا .. لقد ثار واعترض .

قالت بهدوء :

- هذا أمر طبيعى ومنطقى .

نظر إليها (مجدى) ، قائلًا بإصرار :

- لقد قررت ألا أخضع لمنطق أبى .

(صفاء) :

- إنك بذلك تغضبه ، وتجعلنى سببًا فى إثارة نقمته عليك ، وسخطه على زواج كهذا ، وهو ما لا أقبله .

قال (مجدى) ، منفعلًا :

- إننى لم أسع لإغضابه ، ولم أكن فى يوم من الأيام راغبًا فى ذلك أبدًا ، ولكن من حقى أن أختار الإنسانة التى أتزوجها ، والتى أحبها قلبى ، ومن حقى أن أعيش حياتى وفقًا لما أريده أنا ، لا لما يريده هو ، وليس من حقك أنت أيضًا أن تحرمينى من هذا .

وعلا صوته ، وهو يقول لها :

- (صفاء) .. أتحبيننى أم لا ؟

ازدردت لعابها وهى تنظر إليه ، آملة أن تواتيها القدرة والشجاعة، لتستمر فى مغالبة مشاعرها الحقيقية، والتجلد أمام عاطفتها ، لكنها لم تستطع الاستمرار فى المقاومة ، وسرعان ما استسلمت لمشاعرها ، وهى تردّد قائلة :

- أحبك .. أحبك بكل ذرة فى كيانى ، الذى لم يعرف الحب قبلك ، وبمشاعرى التى لم تتفتح لأحد سواك .

وأحس أن هذا التصريح منها قد فجر كل ما فى قلبه من مشاعر الحب نحوها ، واستمد من صدق إحساسها وهى تعبر له عن مدى حبها له ، قوة جعلته أكثر إصرارًا على التمسك بها، وبزواجه منها، مهما كانت الحواجز والسدود، وسألها قائلًا :

- إذن فأنت تقبلين الزواج منى ؟

قالت دون وعى منها ، وكأنها شبه مخدرة :

ـ نعم .

وكست ملامح السعادة وجهه ، وهو يقول :

ـ هذا ما أردت أن أسمعه منك .. هل والداك فى المنزل ؟

(صفاء) :

ـ نعم .

(مجدى) :

ـ حسن .. أنا ذاهب إليهما ؛ لأطلبك منهما رسميًا .

وتركها متقدمًا فى اتجاه المنزل ، وقد أحس أنه قادر على مواجهة العالم بأسره للفوز بها ، وتنفيذ ما استقر عزمه عليه ، أما هى فقد تنبهت حين وجدته يسبقها إلى المنزل ، وبدت كما لو كان قد تيقظت من استغراقها فى هذا الشعور الحالم ، الذى تملكها وهى تعلن موافقتها على الزواج منه ، وتتخيل نفسها زوجة له ، وعادت إلى واقعها الحقيقى ، والتى كانت أكثر إدراكًا منه بصعوبة مواجهته ، على النحو الذى حاول أن يبسطه لها به ، وحاولت أن تمنعه من الاستمرار فى هذا الاندفاع العاطفى ، وأن يعطى لنفسه وقتًا كافيًا للتفكير ومراجعة النفس ، لكنها تراجعت عن محاولتها ، وأحست أنها لا تريد أن تقسو على قلبها ، وتقاومه أكثر من هذا ..

لقد تملكها منذ لحظات إحساس رائع ، لمجرد التفكير فى أنها ستصبح زوجة للرجل الذى أحبته ، فكيف يهون عليها أن تخنق حبها بيدها ، فلتلق خلف ظهرها بكل الاعتبارات البالية ، التى يتمسك بها الآخرون ، ولتتخل عن كل المحاذير ، ولتهتف بدورها قائلة :

ـ مرحبًا بهذا الاندفاع العاطفى .. مرحبًا .

* * *



١٠ ـ الاختيار القاسى ..

قال (مسعود) بإصرار :

ـ لا .. لا يمكننى أن أوافق على شىء كهذا .

(مجدى) :

ـ وما الذى يجعلك لا توافق ؟

(مسعود) :

ـ ألا تعرف ؟ .. الفارق واضح بيننا .

(مجدى) :

ـ ليست هناك فوارق بين اثنين يريدان الارتباط ببعضهما ، وفقًا لشريعة الله .

(مسعود) :

ـ وما الذى يجعلك واثقًا من أن ابنتى تريد الارتباط بك ؟

(مجدى) :

ـ اسألها .

نادى (مسعود) ابنته ، التى دخلت الحجرة فى خفر وحياء ، حيث سألها فى مواجهة (مجدى) :

ـ هذا الشاب يرغب فى الزواج منك ، فما رأيك ؟

ولم تفتح (صفاء) فمها بكلمة ، بل خفضت عينيها ،

وقد توردت وجنتاها ، وأحست بأن شجاعتها المعتادة فى التحدث إلى أبيها بصراحة ، ودون خجل فى كافة الأمور ، قد خانتها هذه المرة ، وأعاد الأب السؤال قائلًا :

ـ قلت لك : ما رأيك .. هل تقبلين الزواج منه ؟

صاحت الأم ، قائلة :

ـ ماذا جرى يا (مسعود) ؟ ألا ترى أنها خجلى ؟

ولم يكن (مسعود) بحاجة إلى سماع رد ابنته على سؤاله ، إذ كان من الواضح مما رآه فى عينيها ، ومن معرفته الجيدة بها ، أنها موافقة على هذا الزواج وتريده .. هذا ما رآه فى البداية ، ومنذ وطئت قدما (مجدى) منزله ، وهذا أيضًا ما كان يخشاه .

وعاد يلتفت إلى (مجدى) ، قائلًا فى تصميم :

ـ أيًا كان الأمر ، فإننى لا أوافق على هذا الزواج .

قال له (مجدى) ، معترضًا :

ـ لماذا تصر على التقليل من شأن نفسك ، وتعتقد أن أسرة صلبة مكافحة مثل أسرتكم ، لا تناسب شخصًا مثلى ؟

استفزت هذه العبارة (مسعود) ، فقال بكبرياء :

ـ إن ما أعتقده هو أنك أنت الذى لا يناسبنا .

وحاولت زوجته أن تتكلم ، وقد أحست بما فى هذا الرد من قسوة ، ولكنه قاطعها قائلًا :

ـ اصمتى .

وقال له (مجدى) بإصرار مماثل :

- إذن فهل تسمح أن توضح لى ، كيف أننى لا أناسب أسرتك ؟

وقال له (الأب) بخشونة :

- إننا أسرة مكافحة ، نحترم الرجال الذين يعملون ويكدون ويأكلون من عرقهم ، ومما تنتجه سواعدهم ، أناس جربوا لذة التعب والمثابرة مثلنا ، رجال بسطاء ، ولكنهم أقوياء يمتلكون العزم والصلابة ، إننى أريد لابنتى شخصًا لا يختلف كثيرًا عنا ، ولا تنقصه صلابتها .. شخص من طينة هذه الأرض ومن أهلها ، أما أنت فلم تجرب حياة من هذا النوع ، ولا تقوى عليها ، مهما ادعيت أنك مستعد لمشاركتنا حياتنا وآمالنا البسيطة ، وأنت بهذا لن تستطيع أن تقنعنى ولا أن تقنع ابنتى ، حتى لو كانت عواطفها متجهة إليك الآن .

قال له (مجدى) برصانة :

- إذا كنت لم أفلح أرضًا ، أو أنشئ مزرعة صغيرة بساعدىَّ ، فليس هذا ذنبى ، لأننى لم أولد فى هذا المكان ، ولم تتح لى الفرصة لممارسة مثل هذا العمل .. إن العمل الوحيد الذى أتيحت لى ممارسته خلال الأعوام الماضية ، هو أن أكون طالبًا يستذكر دروسه ، ويتعين عليه أن ينجح

فى نهاية العام .. والحمد لله .. لم أكن مقصرًا فى هذا العمل ، بل كنت متفوقًا دائمًا فى كل أعوام دراستى ، ولم أكن أبدًا ذلك الفتى المدلل ، الذى تطارده كلمة الفشل ، وأعتقد أننى سأكون ناجحًا ومتفوقًا أيضًا ، إذا ما أتيحت لى الفرصة لإضافة المزيد من الجهد لهذا المكان .

قال (الأب) ، وفى صوته نبرة سخرية :

- التفوق والنجاح فى الدراسة شىء ، والعمل فى مزرعة ريفية شىء آخر .. لماذا لا تستمر فى ذلك المجال ، الذى نجحت وتفوقت فيه ؟ إننى أعلم أنك كنت فى سبيلك لأن تصبح مهندسًا مرموقًا ، بل أستاذًا جامعيًا .. إنه من الحمق التخلى عن شىء كبير ، له قيمته كهذا ، من أجل المشاركة فى مزرعة ريفية صغيرة .. لو فكرت فى الأمر مليًا ، بدلًا من هذا التسرع ، لوجدت أن ما أقوله هو الأقرب إلى المنطق ولصالحك ، فنحن نختلف عنك يا بنى ، وليس هناك ما يدعوك إلى التشبث بالزواج من ابنتى ، فسوف يكشف لك المستقبل عن الكثيرات غيرها ، من اللاتى يناسبنك وتناسبهن أكثر من (صفاء) .

ردّ عليه (مجدى) ، بنفس الرصانة التى كان يتحدث بها :

- إن الحمق هو أن أبقى متشبثًا بشىء لا أحبه ،

ولا أرغب فيه ، حتى لو كنت متفوقًا وناجحًا فى أدائه ..
إننى أريد هذه المرة أن أنجح وأتفوق وأمارس عملًا
أحببته ، كما أننى لا أعتقد أنه هناك من تناسبنى أكثر من
(صفاء) .

وقال له (الأب) ، وقد ضاق صدره من قوة منطق
(مجدى) :

- إنك تتحدث عن أشياء لم يكشف عنها المستقبل بعد ،
فما أدراك أنك ستحب العمل في هذه المزرعة ، ألأنك
رأيتها مرة أو مرتين وأعجبتك ، أم أنك تتخذ من ذلك الأمر
وسيلة ، لكى تقبل ابنتى الزواج منك .. ثم ما أدراك أنك لن
تندم فى المستقبل ، على زواجك من (صفاء) ، بعد أن
تذهب فورة الحب الأولى ، وتبحث بعدها عن فتاة أخرى
تناسبك ، أكثر من هذه الفتاة الريفية البسيطة ، التى
اندفعت ذات يوم وراء عواطفك ، لتجد نفسك مقترنًا بها .

(مجدى) :

- إننى لا أعرف سوى أننى أحب ابنتك ، وأصبحت
مستعدًا للتغير من أجلها ، بل أصبحت قادرًا على تحديد
ما أريده ، والعمل من أجل تحقيقه ، بعد أن عرفتها .

وانفعل (الأب) ، قائلًا فى حدة :

- أحببتها .. يبدو أنك تجهل ما الذى يصح ولا يصح
قوله فى مكان كهذا .. إننا لا نسمح بكلمات مثل هذه هنا .

حاول (مجدى) أن يتكلم ، ولكن (الأب) أسكته
بإشارة من يده ، قائلًا :

- انتهى الأمر .. لقد طلبت يد ابنتى للزواج ، وأنا
رفضت هذا الطلب .

اعترض (مجدى) ، قائلًا :

- ولكنها موافقة على هذا الزواج ، ويتعين عليك
ألا تحرمها حقها فى هذا ؟

وقال له (الأب) فى غلظة :

- ليس هذا من شأنك .

ثم نظر إلى ابنته ، قائلًا :

- وأيًا كان رأيها ، فإنها لن تخالف ما قررته .

نظر (مجدى) إلى الأب فى توسل ، ثم إلى (صفاء) ،
التى ما لبثت أن اندفعت مغادرة الحجرة ، وهى تجهش
بالبكاء ، ودنا (مجدى) من الأم ، قائلًا فى رجاء :

- خالة (نعمات) .. إننى أحب (صفاء) ، ولن أقوى
على الحياة دونها .. أرجوك قولى شيئًا .. افعلى أى شىء
من أجلى ، ومن أجل ابنتك ، فأنا أعرف جيدًا أنها تبادلنى
هذا الحب ، وتأمل مثلى فى إتمام هذا الزواج .

ازداد (الأب) انفعالًا ، وهو ينهض من مقعده ، صائحًا :

- قلت : لا تردد هذه الكلمات عن الحب ، وتلك الأشياء

التى تعرفونها بمنزلى .. والآن تفضل ؛ فأنا أريد أن أذهب لفلاحة الأرض .

ولم يجد (مجدى) سبيلًا إزاء تعنت (مسعود) ، سوى مغادرة المنزل ، ولكنه قال قبل أن يغادر المكان :

ـ على كل حال ، إننى لن أفقد الأمل .. سأقيم لبضعة أيام فى الفندق الصغير الوحيد بالمدينة المجاورة للبلدة ، وسأبقى متشبثًا بـ (صفاء) إلى أن يلين قلباكما ، أو أعرف أنكما حكمتما بحرمانى وحرمانها من حقنا المشروع ، وهو حكم أشبه بالإعدام ..

* * *

قالت الأم ، بعد انصراف (مجدى) :

ـ إنك لم تكن عادلًا فى رفضك هذا .

(مسعود) :

ـ بل إن ما فعلته كان فى منتهى العدل .

قالت (نعمات) بصلابة ، لم تعتد أن تواجهه بها :

ـ لقد تشاجر الفتى مع أبيه ، وضحى بكل شىء من أجل الاقتران بـ (صفاء) ، وجاء ليمد لنا يديه ، فكيف نرفضه بهذه القسوة ؟!

نظر إليها (مسعود) ، قائلًا :

ـ لنفس الأسباب التى ذكرتها ، إذا تغاضيت عن

الفوارق التى تفصل بين هذا الشاب وبين ابنتنا ، فكيف أتغاضى عن الأصول وعن التقاليد ؟!.. هل من الأصول أن نكون سببًا فى شجار بين ابن وأبيه ؟ وهل من الأصول أن نزيد من هذا الخلاف بين الأب والإبن ، لمجرد الموافقة والترحيب بزواجه من ابنتنا ؟.. ثم هل من التقاليد التى تربينا عليها واحترمناها ، أن نقدم ابنتنا لشاب جاء يطلبها ، دون مصاحبة أبيه ، ودون موافقته ؟.. أتعرفين ماذا سيقول عنا (عبد الحميد قنديل) ؟.. سيقول إننا غررنا بابنه ، واستخدمنا ابنتنا للتأثير عليه ، من أجل دفعه إلى الزواج بها ، والفوز بهذه المصاهرة التى تبدو مشرفة .. بل وتتجاوز حتى أحلامنا .. ومخزية بالنسبة له .. وليس هذا ما سيقوله وحده ، بل وما سيردده أهل البلدة أيضًا .. أيرضيك هذا ؟.. أيرضيك أن يقال ، إننا استخدمنا ابنتنا لخداع هذا الشاب ، ودفعه إلى مصاهرتنا ؟..

قالت زوجته غير مقتنعة :

ـ هذه حجج واهية ، فالشاب رشيد ومتزن ، وليس بالفتى الذى يمكن أن يغرر به ، والكل يعلمون ذلك ، ثم إن ابنتك متعلمة ، ونحن الآن فى وضع أفضل ، ولدينا مزرعة وأرض نمتلكها ، ولم نعد أجراء أو خدام لأحد .

نظر الرجل إلى زوجته ، قائلًا :

ـ أتضحكين علىّ أم على نفسك .. إذا كان الشاب رشيدًا ومتزنًا كما نعلم نحن ، فلن يكون هذا هو رأى الآخرين .. ثم إن ابنتك معها دبلوم زراعى ، وهذا هو قدرها من التعليم ، فى حين أن هذا الشاب فى طريقه لكى يصبح دكتورًا ، وأستاذًا فى الجامعة ، أما المزرعة والقيراطين من الأرض ، التين تتحدثين عنهما ، فهما لا يجعلانا من أصحاب الأملاك ، ولن يغيرا شيئًا من ماضينا ، فما زال الفارق شاسعًا ، بيننا وبين شخص مثل (عبد الحميد قنديل) .. شاسعًا بما لا يسمح لنا بمصاهرة ابنه .

احتجت (الزوجة) ، قائلة :

ـ لماذا تعقد الأمور على هذا النحو ؟.. لقد انتهى عصر البشوات والبكوات ، والكل أصبح اليوم متساويًا ، وقيمته فى مجهوده وعمله .

ضحك (الأب) بمرارة ، قائلًا :

ـ إنك تتحدثين كأولئك الأفندية فى المجلس المحلى .. من قال لك إن زمن البشوات والبكوات قد رحل .. إنه مازال قائمًا ، وسيبقى قائمًا ، حتى ولو انتهى رسميًا .. ومازال رجل مثل (عبد الحميد قنديل) ، يعتبر أن مجرد التفكير فى زواج يجمع بين ابنتنا وابنه بمثابة إهانة ، يستحق من أجلها أمثالنا الموت .

قالت الأم بيأس :

ـ ولكن ابنتك تحبه . إننى امرأة وأم ، وأعرف ذلك جيدًا وأحسه ، ولن أخاف من التصريح لك به ، إن ابنتك تحب لأول مرة فى حياتها ، وإذا حرمناها من هذا الزواج ، فسوف يكون ذلك بمثابة صدمة كبيرة .. الله وحده يعلم ما الذى ستحدثه بها وفيها .. تلك الابنة التى أحببناها ، والتى انتشلتنا من الفقر إلى الغنى ، وكانت بالنسبة لنا بمثابة السند ، الذى عوضنا عن إنجاب الذكور ، فكانت لنا خير معين .. كيف يطاوعك قلبك على حرمانها من الإنسان الوحيد الذى أحبته .

زفر (الأب) زفرة قصيرة ، قائلًا :

ـ أعلم .. أعلم جيدًا أنها تحبه ، ولا تظنى أننى بحكم تربيتى الريفية ، والتقاليد التى نشأت عليها ، سأكون غاضبًا من أجل ذلك .. إننى رجل متفتح ، وأعى الحياة جيدًا .. أعرف سلطان الحب على النفوس ، كما أننى أثق بابنتى جيدًا أيضًا ، وأعرف أنها مهما كانت مشاعرها ، فلن تتجاوز التقاليد التى تربت عليها ، ولكننى أشفق عليها وعلى أنفسنا ، من الارتباط بهذا الشاب .

ثم قال ، وقد بدت معالم الضيق والانزعاج واضحة على وجهه :

- نادى (صفاء) .

اقتربت (صفاء) من أبيها ، الذى دعاها إلى الجلوس إلى جواره ، قائلا :

- أعرف أنك غاضبة منى يا بنيتى .. أتظنين أننى قد ظلمتك برفض هذا الزواج ؟

قالت (صفاء) بنبرة حزينة :

- إننى لن أخالف رغبتك يا أبى .. ولكن .. ولكن ..

قال أبوها بصوت حنون ، وهو يعرف ما يعتمل فى نفسها من مشاعر :

- لقد وثقت دائمًا برجاحة عقلك ، وحسن تفكيرك ، وأنت تعرفين أننى لم أعاملك معاملة الأب لابنته فقط ، بل كنت دائمًا بمثابة الصديق الذى يخلص لك النصيحة ، ويستفيد منك الرأى والمشورة .. إننى لن أقف فى طريق سعادتك ، وما اختاره قلبك ، ولكنى أريد منك أن تفكرى جيدًا فى عواقب هذا الاختيار .. أريد منك أن تفكرى فى الفوارق التى تفصل بيننا وبين هذا الشاب .. إنك كما تقولين ، وكما أعرف ، تصرين على البقاء معنا هنا ، وفى هذا المكان ، على الرغم من أنه لا أنا ولا والدتك نفرض عليك ذلك ، وإنما هو اختيارك وحدك ، الذى أصررت عليه دائمًا ورفضت التنازل عنه، وبالتالى فلست مستعدة للذهاب

معه ، ومرافقته لمكان آخر ، يقربك من خلاله إلى مجتمعه وحياته التى تربى عليها ، وهو كما يقول مستعد للمعيشة معك هنا ، والبدء معنا فى حياة مختلفة عن تلك التى نشأ عليها ، بعيدًا عن ثراء أبيه ، وعن رغبته فى أن يراه شخصية مرموقة ، كمهندس كبير وأستاذ جامعى ، وهو ما كان يصبو إليه ، ويتهيأ للعمل من أجله ، بالسفر إلى (أوربا) ، قبل أن يلتقى بك .. وأخشى ما أخشاه أن يكون الأمر مجرد فورة عاطفية ، تستمر بعض الوقت ، ثم يعقبها الندم والشعور بأنه أخطأ فى زواجه منك ، ومشاركتك هذه الحياة ، ويعاوده الحنين إلى حياته الأولى ، وإلى طموحه السابق ، فيهجرك ليعاود حياته الأصلية ، أو على أحسن الفروض يكرهك لأنك حُلتِ بينه وبين أسرته وحياته وطموحه ، وسوف تتألمين كثيرًا من أجل ذلك ، وهو ما لا أرضاه لك ، وأشفق عليك منه .. قد لا آبه كثيرًا لما سيقوله الناس عنا هنا ، من أننا غررنا بهذا الشاب الثرى، ابن أحد وجهاء البلدة؛ لنزوجه ابنتنا .. ولما يمكن أن يفعله بنا والده ، إذا ما أتممنا هذا الزواج على الرغم منه ، فأنا مستعد للتصدى لذلك ، ما دام الأمر يتعلق بسعادتك ، ومهما كانت المتاعب ، وأنا مستعد أيضًا للتغاضى عن الشكل اللائق ، الذى يتعين به أن أزوج ابنتى

وفقًا لتقاليدنا وعاداتنا ، وهو أن يأتى من يطلبك إلى الزواج بصحبة أبيه ، احتراما لنا ولابنتنا .. كل ذلك مستعد للتغاضى عنه ، ولكنى غير مستعد لأن أكون سببًا فى شقائك فى المستقبل ، إذا ما وافقت على هذا الزواج ؛ فأنت ابنتى الغالية ، التى يعلم الله كم أحمله لها من حب فى قلبى ، ولن يطاوعنى قلبى على ألا أبصرك بالحقيقة ، التى أراها ببصيرة الأب ، وألا أبدى رأيًا مخالفًا لمستقبل قد يشقيك ، و يخلف لك الكثير من الجراح .. ربما آلمك هذا بعض الوقت ؛ لحرمانك من هذا الشاب ، ولما تحملينه له من عاطفة ، ولكن صدقينى يا بنيتى ، سينتهى هذا الألم سريعًا ، وسيكون أهون بكثير مما يمكن أن يحمله لك المستقبل ، لو ارتبط به .. والأمر فى النهاية مرهون بك .. لقد قلت رأيى ، ولكنى لن أعارض رغبتك إذا صممت على الزواج منه .. كل ما أطلبه منك هو بعض التفكير .

صمتت (صفاء) برهة من الوقت ، وقد خفضت بصرها ، وعندما عادت تنظر إلى أبيها ، كانت العبرات قد بللت وجنتيها ، وقالت من خلال عبراتها :

ـ إننا على كل حال لن نتركه ينتظر فى ذلك الفندق ، متعلقًا بالأمل ، يجب أن نعلمه بقرارنا النهائى ، حتى يعود لأبيه ، ولدراسته ، ولحياته التى تربى عليها .

تفحصها (الأب) بعينيه ، متسائلًا :

ـ هل يعنى هذا .. أنك ..

قاطعته وهى تمسح تلك العبرات التى سالت على وجنتيها :

ـ سأرفض هذا الزواج ، فرأيك هو الصواب يا أبى .

قال لها (الأب) مشفقًا :

ـ أعانك الله على تحمل تبعات هذا القرار الحكيم يا بنيتى .. على كل حال سأذهب إليه فى فندقه ، وأبلغه الأمر بنفسى .

ولكنها قالت له :

ـ كلا يا أبى .. لن يقنعه ذلك .. سيعد ذلك الرفض تعنتًا منك ، مهما كانت المبررات ، وسيبقى متشبثًا بى ، وسيصر على عناده مع أبيه ، وعلى عدم السفر .. سأبلغه ذلك بنفسى .. سأجعله يعرف أن هذا هو قرارى واختيارى وحدى ، فقد يجعله هذا يكرهنى ويعود إلى رشده ، وإلى حياته التى خلق لها .

واندفعت تهرول خارج الحجرة ، وقد غلبتها دموعها ، فأجهشت بالبكاء ، فى حين نظر إليها أبوها متألمًا ، وهو يقول لنفسه مكررًا :

ـ أعانك الله على اختيارك هذا يا بنيتى .. أعانك الله .

★ ★ ★

١١ ـ حب وتضحية ..

اصطحب أحد العاملين فى مزرعة (عبد الحميد قنديل) (مجدى) إلى المزرعة ، حيث قال له وهو يتركه أمام باب الفيلا ، التى تتوسط المزرعة :

ـ البك فى انتظارك بالداخل .

واستقبله أبوه فى القاعة السفلية للفيلا ، وهو جالس فوق أحد المقاعد ، التى تحتل جزءًا من القاعة ، بوجه متهجم ، قائلًا :

ـ هل وصل بك الحال إلى أن تنزل فى ذلك الفندق الحقير ، الذى يرتاده رعاع البلدة ، دون أن تفكر حتى فى أن تقضى ليلتك بمزرعة أبيك ؟.. ثم أكان يتعين على أن أرسل بمن يأتى بك ، لكى تلبى مطلبى بحضورك إلى هنا ؟

قال له (مجدى) بصوت خافت :

ـ عفوًا يا أبى .. ولكننى أعتقد أنه لم يعد لى مكان فى أى جزء من أملاكك ، بعد أن طردتنى من منزلك .

قال أبوه بانفعال :

ـ لا أدرى أى لوثة أصابتك ، وما الذى فعلته بك هذه الفتاة الريفية الوضيعة ، على الرغم من ذكائك ونبوغك ؟

انفعل (مجدى) بدوره ، قائلًا :

ـ أبى أرجوك .. (صفاء) ليست بالفتاة الوضيعة ، ولا أقبل أن يقال عنها هذا .

احتد (الأب) ، قائلًا :

ـ ليس لك الحق فى أن تقبل أو لا تقبل .. إنك لن تفعل سوى ما أردته لك أنا ، ولن أسمح لك بالاستمرار فى هذه الحماقة ، وضياع المستقبل الذى أعددته لك .

(مجدى) :

ـ أعتقد أننا قد انتهينا من ذلك .. لقد طردتنى من المنزل ، وتبرأت منى وأخبرتنى أنك ستحرمنى من ميراثك ، إذا ما استمررت فى تنفيذ اختيارى ، وأنا وافقت على ذلك .

(الأب) :

ـ وهل تعتقد أنك ستستطيع تحقيق مستقبلك ببضعة آلاف أخذتها من ميراث أمك ، وبذلك المشروع الخائب الذى أردت أن تشارك به (مسعود) وابنته ؟

قال (مجدى) بهدوء وثقة :

ـ أعتقد أننى سأستطيع ذلك .. وربما أصبح لى ذات يوم مزرعة كمزرعتك تلك ، لترى أنه يمكننى أن أنجح فى شىء اخترته وأحببته ، بأكثر من نجاحى فى شىء لم تكن لى فيه حرية الاختيار .

قال أبوه بسخرية :
- هذا إذا كان (مسعود) قد وافق على زواجك من ابنته ، وعلى أن تشاركه تلك المزرعة المتواضعة .. لقد ذهبت إليهم اليوم لتأديبهم ، وتذكيرهم بقدرهم جزاء محاولتهم الحقيرة فى استغلالك ، وتوريطك فى الزواج من ابنتهم ، ولكنى فهمت أنهم رفضوك .. لقد تبين لى أن (مسعود) وابنته أكثر إدراكًا وتعقلًا منك ، فهم يعرفون جيدًا قدر أنفسهم ، ويعرفون الأصول ؛ لذلك رفضوا أن يشاركوك فى تلك المهزلة ، التى أردت ارتكابها ، والتطاول على أسيادهم .

قال (مجدى) بإصرار وتحد :
- الحقيقة هى أن (مسعود) رفضنى ، لأنه رأى أننى لا أستحق ابنته ، فهو يريد لها رجلًا يعرف كيف يعرق ويتعب ويكد ، لصنع مستقبله بنفسه وبإرادته هو ، لا بإرادة أبيه ، رجل لم يعش طوال حياته لا ينطق إلا بكلمة نعم ، وليس له الحق فى إبداء رأيه ، ولا يملك من أمر نفسه شيئًا .. لقد اكتشف (مسعود) أن من جاء يطلب يد ابنته لم يكن رجلًا حقيقيًا بمعنى الكلمة، حتى يكون جديرًا بها .

هتف أبوه فى غضب :
- (مجدى) .

ولكن (مجدى) واصل كلامه فى إصرار ، قائلًا :
- هذه هى الحقيقة التى يجب أن تعرفها .. إنك لم تخلق منى رجلًا حقيقيًا .. ربما جعلت منى إنسانًا ناجحًا ، ولكنك لم تدع لى الفرصة لكى أكون رجلًا حقيقيًا .. الحقيقة هى أن هؤلاء الأشخاص ، الذين تتحدث عنهم ، يعرفون قدر أنفسهم جيدًا ، ولا يرحبون بفتى مدلل خاضع لسلطان أبيه ، ولا يعرف كيف يعتمد على نفسه بدونه ، والمهزلة الحقيقية هى أننى قد كشفت ذلك مؤخرًا ، ولكنى لن أتنازل مرة أخرى عن أبسط حقوقى .. حقى فى الاختيار .. إننى و (صفاء) متحابان ، وسأعرف كيف أقنعهم بقبولى بينهم ، مهما كانت معارضة أبيها الآن .. لن أتخلى عن اقترانى بها ، وعن تنفيذ ذلك العمل الذى أحببته ، منذ ذهبت إلى هذه المزرعة الصغيرة .

وفى تلك اللحظة دلفت (صفاء) إلى القاعة ، من خلال الباب المفتوح ، وكانت قد استمعت إلى الحديث الدائر بين (مجدى) وأبيه ، فقالت لـ (مجدى) ، وهى تواجهه مباشرة ، بعد أن فوجئ برؤيتها :
- أستاذ (مجدى) .. إننى لم أقل كلمتى بعد .. لقد فكرت فى الأمر بعقلى وبروية ، ووجدت أنه حتى لو وافق والدك ووالدى على هذه الزيجة ، فلا يمكننى أن أتزوجك .

نظر إليها (مجدى) بدهشة ، قائلا :

ـ (صفاء) .. ماذا تقولين ؟

قالت بصلابة :

ـ ما سمعته .. إن من حقى أن أختار الرجل الذى أتزوجه ، وأنا أجد أنك لست بالشخص المناسب لى .

قال (مجدى) ، منفعلًا :

ـ (صفاء) .. هذا ليس كلامك .. لابد أنك تخفين شيئًا ما عنى ، فقد أخبرتنى أنك تحبيننى .. ماذا قال لكم أبى ؟.. هل هددكم ، أم أن أباك هو الذى استطاع أن يؤثر عليك ، ويدفعك لأن تقولى هذا .

قالت (صفاء) بتعال :

ـ ليس لوالدك أو لوالدى أى تأثير فى موقفى هذا .. إنه قرارى أنا .

(مجدى) :

ـ كيف تقولين هذا ؟.. لقد كنا أمس .

قاطعته قائلة :

ـ أمس غير اليوم .. أمس لم أكن أعرف أنك جئت إلى مزرعة أبيك للاستجمام ، بعد خروجك من مصحة لعلاج الإدمان .. لقد ظننت فقط أنك جئت للترويح عن نفسك بضعة أيام ، فى تلك المزرعة ، أما وقد عرفت أنك كنت

مدمنًا للهيروين ، وأنك كدت تدخل السجن من أجل ذلك ، فإننى أرفض الزواج منك ، حتى لو كنت قد شفيت من الإدمان ، فلا أستطيع أن أقرن حياتى ومستقبلى ومزرعتى بشخص عرف ذات يوم طريق هذا الداء ، فشخص كهذا لا يمكن الثقة به .. آسفة ربما كانت عاطفتى قد انجرفت إليك بعض الوقت .. ولكن عقلى فى النهاية هو الذى حسم الأمر .

وهمت بالانصراف ، ولكن (مجدى) أمسك رسغها ، قائلا :

ـ (صفاء) .. لا يمكن أن تكون عاطفتك قد تجمدت على هذا النحو .

(صفاء) :

ـ عاطفة بدون عقل هى حماقة .. ربما أكون مخطئة ومتعنتة فى رفضى لك ، ولكنى تعودت الحرص دائمًا .. لا أريد أن أقترن بشخص كان ذات يوم مدمنًا للمخدرات .

(مجدى) :

ـ لقد انتهى هذا الأمر .. كنت مريضًا وشفيت .. أتحاسبين مريضًا على داء أصابه .

قالت بنفس النبرة الباردة الجامدة :

ـ الإدمان داء الضعفاء ، ولا أحب أن أقترن بشخص ضعيف .

(مجدى) :
ـ لم أكن أعرف أنك بهذا القدر من القسوة .
قالت وهى تجذب يدها من قبضته :
ـ إننى فتاة عملية ، وأنت عرفت ذلك عنى منذ اليوم الأول الذى رأيتنى فيه ، ومن الأفضل أن تفكر أنت أيضًا بطريقة عملية وواقعية ، وتواصل طريقك نحو الدكتوراه والسفر إلى الخارج ، وبعد عودتك ستعرف أننى اخترت الطريق الأصلح لى ولك .
قال (مجدى) بمرارة :
ـ إنك تنضمين إليهم .. لأبى ولأبيك .. كلكم تريدون إطفاء بصيص النور الوحيد الذى أضاء فى نفسى ، فأنت وأبوك تنكران على قلبى حبه لك .. كما أنكر أبى على عقلى حريته فى أن يختار .
قالت (صفاء) ، وهى تحاول أن تبدو متماسكة :
ـ كثيرًا ما يخطئ المرء منا ، إذا ما ترك له الأمر يتصرف وفقًا لإرادته وحدها ، فربما كان فى ذلك ما يتعارض مع مصلحته الحقيقية ؛ وكذلك فقد يقع الخطأ ، إذا ماتركنا عواطفنا تحكمنا وتقود خطانا ..
وداعا يا (مجدى) ، وأرجو لك مستقبلا طيبًا .
وتركته وسارعت بالانصراف ، فى حين وقف هو يراقب انصرافها شبه مذهول ..

أما الأب ، فكان حتى هذه اللحظة يراقب ما يدور أمامه ، دون أن ينطق بكلمة واحدة ، وما لبث أن اقترب من ابنه ، ليربت على كتفه ، قائلًا وهو يتحدث بصوت ودود :
ـ هون عليك ، فلنعتبر الأمر منتهيًا عند هذا الحد ، والحمد لله أنه انتهى عند هذا الحد .. عد إلى صوابك ، واستعد للسفر ، ولا تشغل تفكيرك بشىء إلا إعداد الدكتوراه ، والعودة إلى مصر أستاذًا جامعيًا مرموقًا ، وإذا كانت مسألة الزواج هذه هامة بالنسبة لك ، فاطمئن .. إننى أعد لك زيجة لائقة .. إن لصديقى الذى سيرعاك فى (ألمانيا) ابنة تدرس الاقتصاد ، وهى ...
ولكن (مجدى) لم ينتظر حتى يكمل أبوه حديثه ، فقد سارع بمغادرة المنزل ، وهو يركض مبتعدًا عن المزرعة ، و ناداه أبوه ، قائلًا :
ـ (مجدى) .. (مجدى) ، عد إلى هنا .
ولكنه لم يستجب إلى نداء أبيه ، بل واصل ركضه مبتعدًا عن المزرعة ، وعندما أراد الأب أن يلحق به ، سمع صوت نحيب يأتى من وراء إحدى الأشجار المحيطة بالمزرعة ، فاقترب من مصدر الصوت ، ليجد (صفاء) تبكى على صدر أمها ، قائلة بلوعة ، من خلال العبرات التى سالت على وجنتيها :

ـ لقد انتهى الأمر يا أمى .. انتهى الأمر .
ورأى (الأم) تربت على ظهرها ، قائلة :
ـ هونى عليك يا بنيتى .. إننى أعلم كم هو قاس عليك ما فعلته ، ولكن أنت التى أردت ذلك .
(صفاء) :
ـ لم يكن أمامى سوى هذا .. لم يكن هناك أى شىء آخر يمكن أن يقنعه بجحودى وجمود عاطفتى ، إلا أن أخبره بأننى اخترت الابتعاد عنه لأنه كان يعالج فى مصحة علاجية من الإدمان ، ولو كنت قد اخترت أى مبرر آخر لما صدقنى ، وكان سيصر على أننى أفعل ذلك ، حتى لا أكون عقبة فى طريقه وطريق مستقبله ، وكان هذا سيجعله يصر على التمسك بى .. ولولا اننى عرفت من أحد العاملين بمزرعتهم أمر سقوطه ضحية للمخدر ، ودخوله للمصحة العلاجية ، لما كنت قد وجدت الوسيلة المناسبة لتنحيته عن طريقى .. ولكن ليشهد الله أننى أحبه .. أحبه بكل ذرة فى كيانى .. واننى أقدمت على التضحية بقلبى ومشاعرى وأحلامى ، من أجل هذا الحب .
قالت (الأم) ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع هى الأخرى :
ـ أعرف .. أعرف ذلك جيدًا يا بنيتى كان الله فى عونك.

قالت (صفاء) ، وهى لا تقوى على مغالبة دموعها :
ـ الشىء الوحيد الذى يؤلمنى .. هو أن يرحل عنى وهو متصور اننى خنت حبى له ، وأننى قابلت مشاعره نحوى بكل هذا القدر من القسوة والجحود .
مسحت (الأم) شعرها ، قائلة :
ـ ربما ينصفك القدر يا بنيتى ، ويعرف ذات يوم مقدار التضحية التي ضحيتها من أجله .
رفعت (صفاء) رأسها عن صدر أمها ، وهى تمسح عبراتها ، قائلة :
ـ أتمنى إذا جاء هذا اليوم ، أن يكون قد حقق كل أحلامه وطموحاته ، وأن يكون سعيدًا وسط أسرة ، وزوجة يستحقها وتلائمه .
واقترب (عبد الحميد قنديل) منهما فى هذه اللحظة ، حيث التقت نظراته بنظراتهما ، وقد بدا فى عينيه ما ينم عن إحساس بالذنب ، وهتفت (الأم) :
ـ (عبد الحميد) بك !
قال بصوت خافت :
ـ كيف حالك يا (نعمات) ؟
قالت (الأم) :
ـ بخير يا بك .

وتطلع (الأب) إلى (صفاء)، قائلًا فى شىء من التردّد :

ـ لم أكن أعرف أنك بكل هذا النبل يا بنيتى .

قالت (صفاء) ، وهى مستمرة فى مسح العبرات التى سالت فوق وجنتيها :

ـ آسفه .. كان يجب أن أنصرف على الفور .. ولكن أمى لحقت بى .. ولكننا سننصرف الآن قبل أن يلمحنا (مجدى) .

واستدركت بسرعة :

ـ آسفة .. أقصد الأستاذ (مجدى) .

قال لها (الأب) بحزن :

ـ لقد سارع (مجدى) بمغادرة المزرعة بمجرد انصرافك .. إنه حزين للغاية ، وأعتقد أنه لن يعود إلى سابق عهده .. إنه يحبك بأكثر مما تتصورين .. وحبه لك قد بدله ، و جعله إنسانًا آخر ، ولكن التضحية التى أقدمتِ عليها ربما جاءت بنتيجة عكسية ، فهى بالنسبة له قد حطمت آماله وأحلامه .

وردّد قائلًا فى شرود :

ـ آمال وأحلام من صنعه واختياره ، وليست من اختيارى .

ثم استدار ، قائلًا بحماس :

ـ المهم الآن أن نعثر عليه ، ثم نرد له هذه الآمال والأحلام ، فلا يهمنى الآن السفر إلى (ألمانيا) ولا الدكتوراه .. بقدر ما يهمنى استعادة ابنى ، وتهمنى سعادته ..

وانطلق يبحث عن ابنه الضائع .

★ ★ ★



١٢ ـ طـريق الحـب ..

دخل (مجدى) إلى النادى بعينين زائغتين ، وهو يبحث بنظره فى أركانه ، وما لبث أن اندفع نحو أحد الأشخاص ، كان يتوسط مجموعة من الأصدقاء ، حيث ناداه هامسًا ، فاقترب منه هذا الشخص بابتسامة على وجهه ، قائلًا :

ـ (مجدى) .. أين كنت ؟.. لقد افتقدناك كثيرًا .

وهمس له (مجدى) ، قائلًا :

ـ (صلاح) .. إننى بحاجة للهيروين .. أريد كمية ولو ضئيلة منه .

تلفت (صلاح) حوله بقلق، ثم نظر إليه هامسًا بدوره :

ـ هل جننت ؟ إنهم قريبون منا ، ولقد أخبرتك ألا تتحدث عن تلك الأشياء هنا ؟

قال له (مجدى) ، وقد بدا نافذ الصبر :

ـ هل ستحضر لى ما أحتاج إليه أم لا ؟

وابتسم (صلاح) ، قائلًا :

ـ آسف يا صديقى .. لم يعد يتوافر لدى ما تريده .. الظروف الحالية ..

قاطعه (مجدى) ، قائلًا :

ـ سأدفع لك ما تريده .

عاد (صلاح) يتلفت حوله ، ثم همس :

ـ حسن .. انتظرنى بالخارج أمام سيارتى ، سأصحبك إلى منزلى ، وهناك سأبحث لك عن كمية صغيرة متبقية لدى .

وغادر (مجدى) النادى ، حيث لحق به صديقه ، فى حين وقف صديق آخر يراقبهما من بعيد ، بعد أن استمع لحديثهما ، وقد بدت فى عينيه ملامح القلق ، وبعد قليل دخل (عبد الحميد قنديل) إلى النادى وبصحبته (صفاء) ، حيث نادى أحد الأشخاص ، قائلًا :

ـ ألم يحضر (مجدى) إلى النادى ؟

أجابه ذلك الشخص :

ـ نعم .. كان هنا اليوم .

سأله (الأب) بلهفة :

ـ وأين ذهب ؟

هز الشاب كتفيه ، قائلًا :

ـ لا أعرف .

وفى تلك اللحظة ، اقترب منهما الشاب الذى كان يستمع إلى حديث (مجدى) مع صديقه ، والذى راقب انصرافهما ، وقال للأب :

ـ هل تبحث عن (مجدى) يا عمى ؟

قال (الأب) بنفس اللهجة :

ـ نعم .. هل رأيته ؟

قال (الشاب) :

ـ لقد انصرف مع (صلاح) منذ قليل ، وسمعت انه سيذهب معه إلى بيته .

سأله (الأب) :

ـ ومن (صلاح) هذا ؟.. أتعرفه ، أو تعرف بيته ؟

همس له (الشاب) ، قائلًا :

ـ ان (مجدى) صديقى ، أو بمعنى أصح كان (صديقى) ، قبل أن يرافق أشخاصًا مثل (صلاح) ، ويعرف طريق المخدرات .. و (صلاح) هذا هو أصل البلاء ، فكلنا نعرف أنه يروج هذه المخدرات اللعينة ، وقد سمعت انه سيصحب (مجدى) إلى منزله ، لكى يقدم له ما طلبه من هيروين .

وارتسمت على وجه (الأب) ملامح الفزع ، وهو يقول للشاب :

ـ أرجوك يا بنى .. أرجوك .. إذا كنت تعرف منزل هذا الشاب ، فاصحبنى إلى هناك .

بدا الشاب مترددًا ، وهو يقول :

ـ ولكن ..

تعلق (الأب) بذراعه ، وهو يقول :

ـ أتوسل إليك .. ساعدنى فى إنقاذ (ابنى) من الضياع .. لا أريد أن أفقده مرة أخرى .

وقالت له (صفاء) متوسلة بدورها :

ـ أرجوك ساعدنا على اللحاق به ، قبل أن يستسلم لذلك الداء اللعين ، وقبل أن ينجح صديقه هذا فى إغرائه بالعودة إليه .

قال لهما الشاب :

ـ حسن .. سأصحبكما إلى منزله .

توقفت السيارة بهم أمام منزل (صلاح)، حيث أشار لهما الشاب الذى كان برفقتهما ، إلى أحد أدوار العمارة ، قائلًا :

ـ إنه يسكن ذلك الدور .

وهرول خارجًا من السيارة ، وهو يقول :

والآن اسمحا لى بالانصراف ، فأنا لم أعتد ارتياد تلك الأماكن المشبوهة ، ولا أحب أن يقترن اسمى بها .

واندفع (الأب) و (صفاء) داخل العمارة ، حيث وجدا المصعد معطلًا فأسرعا بارتقاء درجات السلم ، فى محاولة للحاق بـ (مجدى) ، لكنهما ما لبثا أن وجداه واقفًا فى الدور الرابع ، وهو مرتكز بيديه على سياج السلم ، وقد بدا عليه التعب والإرهاق ، وهتف به الأب :

ـ (مجدى) .

نظر إليه (مجدى) باستغراب ، قائلًا :

- أبى .

ثم نظر إلى (صفاء) ، فقد ازدادت دهشته ، قائلًا :

- (صفاء) .. ما الذى جاء بكما إلى هنا ؟ .. وكيف عرفتما أننى هنا ؟

قال له (الأب) :

- ليس هذا هو المهم .. المهم هو كيف سمحت لنفسك بالعودة إلى هذا الوبال مرة أخرى .. إننى لن أغفر لك ولا لنفسى ..

قاطعه (مجدى) ، قائلًا :

- اطمئن يا أبى .. لقد كدت أسلم نفسى لهذا الشر من جديد فى لحظة يأس ، أحسست خلالها أن كل أحلامى قد تحطمت .

ونظر إلى (صفاء) ، مستطردًا :

- ولكنى تذكرت ما قالته (صفاء) .. تذكرت أننى لو فعلت ذلك أكون قد استحققت بالفعل ما قالته عنى .. استحققت عدم ثقتها بى ، وعدم اطمئنانها إلى ربط حياتها بشخص مثلى ، كان مدمنًا ذات يوم ، ولحقت به وصمة الإدمان .

ثم عاد ينظر إلى (أبيه) ، قائلًا :

- لقد ألقيت بالهيروين فى بئر السلم ، بعد أن أخذته من (صلاح) ، ولو هبطت إلى البدروم ستجد آثاره هناك .. اطمئن فلم أمس منه شيئًا ، ولن أرتكب هذا الخطأ مرة أخرى ، فلن أعود إلى مثل هذا الخيار الخاطئ ، للتعبير عن رفضى التدخل فى حياتى ، أو هربًا من قصة حب فاشلة .. لن تكون معالجة الخطأ بالخطأ ولا التغلب على الآلام بالضعف والاستسلام .

هتف (الأب) :

- حمدًا لله .

وعاود (مجدى) الحديث ، قائلًا :

- ولكننى مصمم على تنفيذ ما اخترته لنفسى .. سأنشىء مزرعة صغيرة لحسابى ، وربما أشركت فيها أحد الأصدقاء .

قال له (الأب) :

- مزرعتى تحت أمرك .. يمكنك أن تديرها بنفسك ، لو لم تكن راغبًا فى السفر إلى (ألمانيا) ، واستكمال دراستك هناك .

قال له (مجدى) بإصرار :

- لا يا أبى .. ليس هذا ما أريده .. أريد شيئًا أصنعه بيدىّ هاتين .. شيئًا لا أعتمد فيه على إمكاناتك وثرائك ،

شيئًا يجعلك فخورًا بي كما اعتدت دائمًا ، ويجعلني أيضًا فخورًا بنفسي .. شيئًا أحبه ، وأنجح فيه لأنني أحبه ، وأكون سعيدًا وأنا أراه ينمو ويكبر أمامي كل يوم .

وابتسمت (صفاء) ، قائلة :

ـ ألا تسمح لفتاة تمتلك مزرعة صغيرة ومحدودة ، وتتمنى أن تضيف إليها بعض المنشآت والإمكانات ، لكي تجعلها كبيرة بعض الشيء أن تشاركك حلمك هذا .

وتحول إليها وهو لا يصدق أذنيه ، هاتفًا :

ـ هل يعني هذا أنك توافقين ؟!..

قاطعته ، قائلة :

ـ أما زلت راغبًا في مشاركتي ؟

هتف قائلًا ، وقد ارتسمت ملامح الفرحة على وجهه :

ـ بالطبع .

قالت له بدلال :

ـ حسن .. بالنسبة للمزرعة فإنني موافقة ، أما بالنسبة لطلبك الآخر ، فلابد من أن تعود لتسأل عم (مسعود) مرة أخرى .

وغمزت له ، قائلة :

ـ وأعتقد أنه لن يمانع هذه المرة .

ضحك (الأب) ، قائلًا :

ـ وأنا سأصحبك بنفسي أيضًا هذه المرة ، لطلب يد الفتاة التي اخترتها .

وتناول (مجدي) يدها بين يديه ، قائلًا في اشتياق :

ـ (صفاء) :

همست قائلة ، وهي تتطلع إلى عينيه في شوق مماثل :

ـ (مجدي) :

وقال لهما (الأب) متصنعًا الشدة :

ـ ما شاء الله .. هل نسيتما أننا نقف على السلم ؟..

وفرا هذه الأشواق والهيام إلى ما بعد الزواج .. هيا بنا ، واحتواهما بين ذراعيه ، وهو يهبط معهما في درجات السلم ، وكان هذه المرة أيضًا فخورًا بابنه وسعيدًا به . فقد رآه في مرات كثيرة شابًا متفوقًا وناجحًا .. وكان ذلك يسعده كثيرًا .. وهو يراه هذه المرة رجلًا بمعنى الكلمة ، فقد اختار وأصر على اختياره ، ولم يضعف .. وهذا أسعده أكثر .. إنه يتعلم الآن من ابنه ما لم يتمكن من تحقيقه هو في شبابه ..

وربما لو كانت له شجاعته وإرادته ، لاختار أن يكون ممثلًا مسرحيًا ، ولتمكن من الزواج من فتاة الكومبارس التي أحبها ذات يوم ، ولم يقو على الزواج منها خوفًا من أبيه ، ومن التقاليد العائلية .

ولكن ها هو ذا ابنه يفعل ما لم يقو هو على فعله .

إن للإنسان الحق فى أن يختار طريقه ، وللقلب الحق فى أن يختار شريكه ، وليس لأى شخص الحق فى أن يقف فى سبيل هذا الاختيار ..

أبـدا .

★ ★ ★

[تمت بحمـد الله]



سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

المؤلف



أ . شريف شوق

الحب والاختيار

عاش (مجدى) دائمًا حياة ليست من اختياره، وعندما التقى بالحب فى حياته لأول مرة، قرَّر أن يكون هذا هو بداية المواجهة، مواجهة نفسه واختبار إرادته، فقرَّر ألا يتنازل عن حبه، وعن الحياة الجديدة، التى اختارها

